**تأليف**
**عدنان السبيعي**

# أخلاق الإسلام
# بين الفطرة والفكرة

**تقديم**
**أ. د محمد راتب النابلسي**

# مقدمة

**بقلم الدكتور محمد راتب النابلسي**

تمنى علي أخ كريم، وبحاثة علم، الأستاذ الجليل **عدنان السبيعي**، أن أقدم لكتابه القيم: «**أخلاق الإسلام بين الفطرة والفكرة**»، وقد بيَّن في المقدمة أن الواجب هو المصطلح الأساسي لعلم الأخلاق، والمصلحة هي المصطلح الأساسي لعلم السياسة، ومثل هذه المؤلفات تشتد الحاجة إليها، حينما ينحطّ الإنسان ويتحول عن عبادته لربه إلى عبادته شهواته. وتعتمد علاقتَه بالآخرين على القوةُ لا على الرحمة، وعلى العنف لا على التفاهم والحوار، وينصرف الإنسان عن العناية بالنفس إلى العناية بالجسد، وعن الاهتمام بالمبدأ إلى الاهتمام بالمصلحة، ويتحول المجتمع كله إلى غابة يحسّ كل واحد فيها أن من حقه افتراس الآخرين، كما أنه من الممكن أن يكون فريسة لأي واحد منهم!. هذا هو مجتمع الغاب، وعندها تعيش الأمة بل الإنسانية أزمة حضارية، تعيق تقدمها، وتقوِّض دعائمها.

فحينما يغفل الإنسان عن ربه، ويتفلت من منهجه، وينقاد إلى هوى نفسه؛ فعندئذ تفسد علاقته بعقله، فيعطله، أو يرفض نموَّه وتطوره، أو يسيء إعماله، فيسخره لأغراض رخيصة دنيئة، عندها يكون الجهل والتجهيل، والكذب والتزوير؛ وتفسد علاقته بنفسه، فتَسفُل أهدافه، وتنحط ميوله، ويبيح لنفسه أكثر الوسائل قذارة، لأشد الأهداف انحطاطاً، عندها تكون أزمة الأخلاق المدمرة.

لكن طوفان الفساد، في آخر الزمان، حمل من الأوبئة الخلقية الشيء الكثير، حمل: الكذب والدجل، والحسد والنفاق، والفسق والفجور، والظلم والخيانة، والحمية والعصبية، والغش والتدليس، والطمع والجشع، والمكر والحيلة، والفحش والخلاعة،

والحرص والبخل، والترف والتبذير، وسوء الظن باللّه والرياء، وعقوق الوالدين وإهمال الأولاد، وأكل السحت والمال الحرام، وأكل مال اليتيم ظلماً.

أما حينما يتصل الإنسان باللّه واجد الوجود، كامل الصفات، واحد أحد، فرد صمد، يغدو هذا الإنسان، الصغير، الضعيف، الفاني المحدود... نيّر الذهن والقلب معاً، حاد البصر والبصيرة جميعاً ويغدو هذا الإنسان منغمساً، في سعادة لا تقوى متع الأرض الحسية أن تصرفه عنها، ولا تستطيع سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلادين اللاذعة أن تقوضها وعندئذ يرى مالا يراه الآخرون، ويشعر بما لا يشعرون، يتمتع بوعي عميق، وإدراك دقيق، له قلب كبير، وله عزم متين، وإرادة صُلبة، وهدفه أكبر من حاجاته، ورسالته أسمى من رغباته، يملك نفسه، ولا تملكه، ويقود هواه ولا ينقاد له وتحكمه القيم، ويحتكم إليها، من دون أن يسخِّرها، أو يسخَر منها، سما حتى اشرأبت إليه الأعناق، وصفا حتى مالت إليه النفوس لقد صلحت أوتار قلبه ففاض رحمةً، وشفقةً، وحباً، وحناناً، ومعاني لطافاً، وشعوراً رقيقاً، حتى جاوز في سموه الملائكة المقربين، يكبر هذا القلب ولا نرى كبره، فيتضاءل أمامه كل كبير.

إن أهم مصدر للسعادة والهناء انسجام واقع المرء مع قيمه الأخلاقية، حيث يشعر المرء بتيّار يجتاحه من البهجة والارتياح والأمن كلما تخطَّى عقبة من العقبات التي تحول بينه وبين التناقض مع مثله وقيمه الأخلاقية.

إن الملذات الحسية لا تخترق غشاء القلب، بل ولا تحوم حوله، لكن الذي يملأ كيان المرء كله بالسعادة والطمأنينة هو نشوة الانتصار على الأهواء والمغريات، وضغوطات الشهوات والمصالح.

إن السعادة الحقة لا تجلب أبداً من الخارج، وإنما هي شعاع من نور، يولد، ويكبر في داخل الإنسان، ويضيء جوانب الحياة كلها، ويجعلها أكثر قيمة ومنطقية،

وأكثر تهيّئاً للنمو والتقدّم والاستمرار، وكل ذلك مرهون بأوضاع تسود فيها الأحكام الأخلاقية، ويعلو فيها صوت الالتزام والاستقامة، وترفرف في أرجائها إشراقات النفس!.

ومن هنا ندرك حجم الجريمة التي ارتكبت في حق هذه الأمة حينما دُفعت دفعاً من قبل أعدائها على مستوى التنظير، وعلى مستوى العمل إلى أن تجعل القيم الأخلاقية والنفسية في المرتبة الدنيا من اهتماماتها؛ فلما واجه الناس ما واجهوه من ضائقات في العيش، ومن شح في متطلبات الحياة الكريمة، لم يجدوا لديهم سنداً خُلقياً كريماً يعتمدون عليه في الصمود أمام المغريات وأمام أسباب الانحدار المختلفة!.

إن الذين نكنُّ لهم عظيم الاحترام ليسوا أولئك الذين يملكون كثيراً من المال أو الدهاء والمكر أو القوة الجسدية الخارقة، وإنما نكن عظيم الاحترام لأولئك الذين يملكون خُلق التسامي وخلق الترفع عن سفاسف الأمور، أولئك الذين انتصروا على التحديات داخل نفوسهم، وأولئك الذين يملكون فضيلة الانتظار والتضحية بالعاجل في سبيل الآجل، والإيثار مع مسيس الحاجة إلى ما يؤثرونه...

إنه بالإمكان أن نقول: إن طابع الرقي الحقيقي هو طابع إيماني أخلاقي، أكثر من أن يكون طابعاً عمرانياً تنظيمياً، والجاذبية التي تتمتع بها القرون الأولى من تاريخ الإسلام تنبع بشكل أساسي من طابع الاستقامة والنبل والتضحية... وليس من التفوق في الحروب أو العلوم أو العمران.

ولعل الطريق الوحيد إلى كسر أغلال الشهوات يكون عن طريق إحداث انتفاضة إيمانية أخلاقية يستعلي بها المسلم على المعطيات المادية للوضع الحضاري الراهن، ويلتفت إلى إثراء حياته بوسائل كثيرة، لا تحتاج إلى المال.

إن دراسة الحضارات توقفنا على حقيقة كبرى، وهي أن مصير الإنسان كان يتوقف دائماً على أمرين: علاقته بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان. والبعد النفسي والأخلاقي هو المركز والمحور في هاتين العلاقتين.

والذي نريد أن نقوله: إننا اليوم في أمسِّ الحاجة إلى إيجاد مدخل جديد للتنمية الأخلاقية، يقوم على منح بعض الثوابت القيمية والأخلاقية معاني جديدة أو اهتمامات خاصة ببعض مدلولاتها، بغية التخفيف من حدّة وطأة التخلُّف الذي يجتاح حياة المسلم، فالتقوى في حياتنا المعاصرة بحاجة إلى إثراء مفرداتها كي تتناول بعض الفروض الحضارية، مثل: الإسراع إلى العمل، وإتقان العمل، وتطوير العمل، والمحافظة على الوقت، وحسن إدارته، والعمل المؤسساتي، وترسيخ مفهوم فريق العمل، والالتزام بالمواعيد، وحسن التصرّف بالإمكانات المتاحة، وترشيد الاستهلاك... وكل هذه القيم المعاصرة لها أصول ثابتة في القرآن والسنة.

ويمكن من خلال التربية والموعظة الحسنة أن نجعل المسلم يشعر بحلاوة الإيمان، وحلاوة الالتزام من خلال القيام بهذه الأعمال التي تقتضيها طبيعة العصر، كما يشعر تماماً عندما يضع صَدَقة في يد فقير، أو عندما يقوم الليل والناس نيام!.

فالتجديد النفسي والأخلاقي ليس نسخ أخلاق وإحلال أخلاق أخرى في موضعها، وإنما هو توسيع في مدلولات بعض المفهومات الأخلاقية، ومنحها أهمية أكبر في النَسق الأخلاقي العام.

لا توجد أمة ليس لها مبادئ محددة، تعوِّل عليها في الضبط الاجتماعي، وفي ترجيح ممكن على ممكن آخر. كما أنه ليس هناك أمة تخطط لجعل واقعها حرباً على مبادئها، وقد ضربت أمة الإسلام أروع الأمثلة في هذا السبيل، مما ليس له نظير!.

ومع الإدراك العميق للصعوبات الكثيرة التي تواجه مَن يريد إحداث تقدُّم أخلاقي ممتاز في وسط متأزِّم، فلا بد من ذكر بعض المبادئ والشروط والأساليب والوسائل التي نظن أنها ذات تأثير في تحسين المستوى النفسي والخلقي لأمتنا والرقي به.

وأمة الإسلام اليوم تحاول أن تنطلق نحو آفاق واسعة المدى، عليها أن تجدد مضامين الانطلاقة الأولى التي أشعل شرارتها النبي r وأهل القرون الخيّرة من بعده. وهذا في الحقيقة يحتاج إلى روّاد، إلى دعاة، إلى علماء من نوعيةٍ خاصّة، ومع أن كثرة عددهم أمر مهم جداً، إلا أن نوعية المواصفات والأخلاق التي يجب أن يتحلّوا بها تظل أهم من كثرة عددهم؛ فالصحابة الكرام الذين تلقّوا تربية مكثَّفة ومتميّزة عن النبي r قد لا يتجاوزون بضعة ألوف، ولكن خصوصية سماتهم وأخلاقهم جعلت منهم قدوة فريدة، أمكنها أن تحمل بناء ضخماً متطاولاً، وما زلنا إلى اليوم نقتبس من بركات تلك القدوة وهديها، من سمات هذا الذي يريد أن يصلح من شأن الأمة:

**صلةٌ قويةٌ باللّه**، جلَّ وعلا، تغمر كيان المسلم، وتنقل إيمانه من حيِّز الدائرة العقلية والتصديق القلبي إلى حيز الشعور، والمعبِّر عنه في حديث مسلم بالإحسان «**أن تعبد اللّه كأنك تراه**». وهذا لن يتأتّى إلا من خلال العبادات المكثَّفة، حيث إن الإيمان أشبه شيء بشجرةٍ وارفة الظلال، وكلما أردنا لهذه الشجرة أن تكبر، وأن تمد أغصانها في كل اتجاه، كان علينا أن نسقيها أكثر؛ وماؤها هو العبادات والنوافل والأذكار...

وهذه السمة كانت واضحة جداً في حياة الصحابة . رضوان اللّه عليهم . والسلف الصالح عامةً.

إن الإيمان الحي المتدفق هو الطاقة العظمى التي نحتاجها في مرحلة الإقلاع، ليس ثمة بديل لذلك.

أسأل اللّه أن ينفع المسلمين بهذا المؤلف القيم، وأن يجعله في ميزان حسنات مؤلفه، إنه خير مسؤول.

% % %

## تصدير بقلم المؤلف

باسمك اللهم نفتتح هذا الكتاب، نحمدك ونشكرك ونستعين بك ونستهديك ونصلي ونسلّم على خاتم الأنبياء والمرسلين القائل: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**». لقد أتممتَ يا رسول الله الأخلاق وأكرمت الناس وهديتهم وأديت الرسالةو نصحت الأمة وكنتَ خير مَن يُقتدى به في الحياة والأعمال.

نبدأ بحثنا «أخلاق الإسلام بين الفطرة والفكرة» فنشير إلى ناحيتين تحددان علاقات الناس بالناس والواحد بالكل وهما، ناحية الواجب وناحية المصلحة. والرجل العادي من الناس إما أن يلتزم بواجباته أو يتبع ما يراه مصلحته وكذلك تفعل كل جماعة.

**الواجب:** هو المصطلح الأساسي لعلم الأخلاق. **والمصلحة:** هي المصطلح الأساسي لعلم السياسة. إنهما شيئان مختلفان، ولا يمكن الخلط بينهما. ويظل الواجب يتجاوز المصلحة ويعلو عليها. وينحدر من الواجب كل من التضحية والفضيلة والرضوان، فهذه كل عطيات ونِعم من بعض ما أفاء الله على عباده والتضحية تظل موضع احترام الناس جميع الناس. إنها تظل موضع احترامنا حتى ولو لم تؤتِ أكلها وتنجح، فنحن نقدّر بطلاً شرع وغامر لإنقاذ طفل من بيته الذي يحترق حتى ولو خرج بالطفل جثة هامدة، إن ما نعتد به هنا هو النية أو إرادة الإنقاذ. ونرى أن المغامر منتصر وظافر، وإن كان الظفر هنا لا ينتمي دوماً إلى عالمنا الحسي فهو منتصر وظافر في «عالمٍ آخر» أراده الله.

وإنه لواضح أن الأبطال المضحين هم أقلة بين الناس، لكن هذه القِلة تظل فخر الجنس البشري. تُطل من أعلى قممه.

**الفعل والنية:**

الإنسان إنسان بما يريد لا بما يفعل، أنت شريف لا بأفعالك ولكن بنواياك ويجب أن تتطابق الأفعال مع النوايا الطيبة حتى تكون هناك أخلاق.

إن الأخلاق تقتضي وجود «عالم آخر» يحاسُب فيه الناس[1].

والسلوك الأخلاقي الحق يكمن معناه في اليوم الآخر.

واليوم الآخر من صنع الله الذي صنع عالمنا.

جاء في حديث أشرف الخلق: «**إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم**».

«**إن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن**».

«**لا يؤمن أحدكم حتى يأمن جارُهُ بوائقه**» قلنا: وما بوائقه يا رسول الله. قال: «**غشه وظلمه**».

إننا أخلاقيون لا بأفعالنا وأقوالنا بل بنوايانا، ونوايا الناس خير من أفعالهم «نية المؤمن خير من عمله». ومع هذا ورغم كل شيء فنحن مسؤولون عن أعمالنا لأن أفعالنا تترجم نوايانا. إن النوايا عالم نفسي جواني وداخلي. والعمل الصادر عن النوايا يظهر في العالم الخارجي. ولكنَّ قيمته تظل شيئاً ماثلاً في السماء، وهكذا فإن الأخلاق ـ في عرف حضارتنا ـ لا تقتصر على العمل المخلص وإنما في النوايا المخلصة الأصيلة.

إن النوايا تقتضي وجود عالم آخر، عالم التقييم والحساب والعالم الآخر حسابه عند الله.

**التدريب والتنشئة:**

هنا يطرح سؤال: «من أين لنا أن نأتي بالنوايا والأفعال؟..».

---

(1) {**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ**} [المؤمنون: 115].

هل نتدرب عليها أم ترانا نحصل عليها بالتنشئة انطلاقاً من الداخل؟.. الواقع إن التدريب يتم في عالم الحيوان ومحلُّه الجسم. والتنشئة تتم في عالم الإنسان ومحلها الإيمان والنفس.

إنك تستطيع أن تدرب جندياً على أن يقف ويتقدم أمام عدو تجريبي وهمي ولكن لا تستطيع أن تعلمه الشجاعة. إن الشجاعة كالتضحية تتم وتنشأ من الداخل أي من المعتقد. إن المعتقد أو الدين منبع التنشئة أتراهما شيئاً واحداً؟.. (الأخلاق والدين)؟.. طبعاً هما أمران لا أمر واحد ولكنهما متلازمان، إن الأخلاق لا تصدر ولا تنطلق إلا من الإيمان والمعتقد. هذا في الأصل، أما الرابطة التي تربط بينهما فهي ما يسمى (العالم الآخر الأسمى) فلأنه عالم آخر فهو دين، ولأنه أسمى فهو أخلاق إن الإيمان هو الفطرة في حضارتنا، والنية هي الفكرة. وهكذا جاء كتابنا يحمل عنوان أخلاق الإسلام بين الفطرة والفكرة.

ومن الجائز أن تعثر على ملحد[1] يمسك بالأخلاق أو ممارسة الأخلاق، وهو قد اكتسب الممارسة الخلقية من معلمٍ أو أب أو أم مؤمن بالإيمان، لكن هذا الملحد لا يُتم أو يكمل المهمة إذ لا يستطيع أن يبث في أولاده مثلاً ما يبثه المؤمنون الصادقون، وذلك لأنه لا يؤمن ولا يعتقد.

إن الإنسان في حدود الطبيعية الحيوانية ليس الإنسان كما يجب أن يكون، فلا يوجد في الطبيعة إلا إنسان ناقص ولا توجد أخلاق صحيحة في الطبيعة، الإنسان الطبيعي هو في أحسن الظروف حيوان ذو عقل، وإن الأخلاق الطبيعية تعد شكلاً من أشكال الأنانية،

(1) قد يوجد ملحد أخلاقي ولكننا لا يمكن إن نجد إلحاداً أخلاقياً لأن الفكرتين متناقضتان وتلغي إحداهما الأخرى إن من يتحدث عن إلحاد أخلاقي كمن يتحدث عن الوجود غير الموجود، وردت هذه الفكرة في كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب) لـ(علي عزت بيغوفيتش) صفحة 239 وما بعدها وقد قبسناها منه وانتفعنا به رحمه الله.

الأنانية الذكية التي وجدت أن التعامل بالحسنى (التي تأمر بها الأخلاق) أفضل من عدم التعامل بالحسنى إذ تخف بذلك الإشكالات.

إن إنسان (دارون) قد يرتقي إلى أعلى درجات الكمال البيولوجي فيكون (سوبرمان) أي إنساناً أعلى جسداً، فهو يختلف عن الإنسان الكلي، أي محروماً من السمو، ذلك السمو الذي هو هِبة من الله.

لقد كانت الأخلاق وما تزال تدعو إلى حماية الأضعف والأقل مقدرة.

وهذا ما يجعل الخلق في خلافٍ مع الطبيعة. وذلك لأن الطبيعة تقول: «تخلَّص مما يعوّقك تخلَّص من الشفقة والرحمة» والشفقة والرحمة بهما تقوم حياة الإنسان الباطنية والأخلاقية وهكذا نجد رجلاً ملحداً مثل نيشته يقول: «إقهر الضعفاء واصعد فوق جثثهم وحطّم جماجمهم».

ويضيف: «أن الأخلاق المسيحية هي السم الزعاف الذي دُسَّ في الجسم القوي للبشر».

انظر وتأمل في الآية {**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**} إنها تتكرر في القرآن أكثر من خمسين مرة، وإنها تؤكد ضرورة تماسك أمرين يُخشى الفصل بينهما، ألا وهما الإيمان والعمل الصالح وهنا وفي القرآن حافز قوي على اتصال التدين بالأخلاق {**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**} [آل عمران: 92] إن الآية لا تقول: «آمن لتصبح خيّراً» بل تقول: «افعل الخير تصبح مؤمناً». «افعل الخير تجد الله تجاهك».

وبعدُ فقد قام كتابنا «أخلاق الإسلام بين الفطرة والفكرة» على ثلاث دوائر: مقدمة بقلم الدكتور محمد راتب النابلسي حفظه الله وأتم نعمه عليه مع تصدير وتمهيد بقلم المؤلف.. وفصول يقوم عليها الكتاب.

أما **التمهيد** فيتضمن تعريفاً بالأخلاق.

وأما الفصول فقد تسلسلت على النحو الآتي:

1- **الفصل الأول:** تناوَلَ المشكلات الأخلاقية.

2- **الفصل الثاني:** تناول الاستعدادات الخلقية قبل الإسلام.

3- **الفصل الثالث:** تناول المبادئ الأساسية للأخلاق في الإسلام. وهذه المبادئ توالت بالشكل الآتي: إلهٌ واحد أرسل محمداً r فكان الوجود الجميل وكانت الحياة فذة حلوة هكذا شاءها اللّه. وكانت الإنسانية واحدة.

4- **الفصل الرابع:** امتياز أخلاق الإسلام. وقد فصلنا هذا الامتياز فيما يلي: فقدان الأساطير ـ تغليب العقل ـ خلق العالم ـ دور المحسوسات في الفكر الإسلامي ـ إقامة التوازن كواقع وجمال ـ دور الفكر التجريدي ـ الإنسان خليفة اللّه في أرضه.

5- **الفصل الخامس:** الأخلاق والعلوم الإنسانية (علم النفس وعلم الانتروبولوجيا وعلم الاجتماع).

6- **الفصل السادس:** مقارنة بين الأخلاق الإسلامية والأخلاق الفلسفية.

7- **الفصل السابع:** تناول التوجهات العملية لأخلاق الإسلام.

8- **الفصل الثامن:** الأخلاق المعاصرة.

الخاتمة.

## تمهيد

### معنى الأخلاق

- ☐ **المعنى اللغوي**
- ☐ **المعنى الشائع**
- ☐ **المعنى الإسلامي**

**معنى الأخلاق:**

هناك معان كثيرة «للأخلاق» نرى من الواجب أن نتبينها ونحددها من أجل حسن استعمالها، ووضوح الرؤية في أجزائها وكلياتها، لكننا سنُعنى من هذه المعاني المتعددة: بالمعنى اللغوي ـ والمعنى الشائع، والمعنى الفلسفي ـ ثم العلمي ـ ونشرح بعدها المعنى الإسلامي.

**المعنى اللغوي:**

جاء في القاموس المحيط للفيروزآبادي في مادة «خُلُقَ» ما يأتي: تخلَّق الشيءَ: ملّسهُ وليّنهُ. خلّقه تخليقاً فتخلّق به، والخِلقة: الفطرة، وصار خليقاً: أي جديراً. وخالَقَهم: أي عاشرهم بخلق حسن.

**الخالق:** صفة من صفات الله تعالى فهو البارئ ونستطيع أن نخرج من المعنى اللغوي بانطباع واضح متميز ألا وهو أن التخلق في اللغة العربية يتضمن التطيب والجدارة والتعامل الحسن والخُلُق والخَلق (أو الإبداع) كل هذا ينبع من مادة لغوية واحدة. في لغة العرب «فالخالق الذي أبدع الخلق والخليقة والفطرة، قد طيب كل ذلك وجعله جديراً حسناً»، ويتأكد انطباعنا هذا بالمعنى الوارد في كتاب الله؛ إذ يقول المولى تعالى: {**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ**} [السجدة: 7-9]. وعلى هذا فالانطباع الذي

نستمده من المادة اللغوية يتمثل في أن التخلق في العربية يتضمن فقط الإيجابيات أي (المعاشرة الحسنة) التي تجعل صاحبها المتخلق جديراً طيباً ولياناً) وذلك خلافاً للاستعمال الدارج أو الشائع: (في الكتب الأعجمية: الأوربية والأمريكية). حيث تكون أخلاق المرء مجموعة عاداته وأقواله وطباعه (حسنةً كانت أم سيئة) التي اعتادها أو تطبع بها[1].

ونرجو أن نفيد من هذا الانطباع حين نحلل المفهوم الإسلامي للأخلاق
فيما بعد.

**المعنى الشائع:**

مجموعة القواعد التي تصف طرق التعامل بين الناس، وهي القواعد التي إذا اتبعها المرء حققت له أهدافه وما يبتغيه وهذا يعني أن الأخلاق بالمعنى الدارج والشائع تتبع أغراض الناس، فمن كانت أغراضه (أو أهدافه) طيبة صارت أخلاقه (أي طريقة تعامله) طيبة ومن كانت أهدافه سيئة أو شريرة صارت أخلاقه (أو طريقة تعامله) سيئة أو شريرة.

إن هذا المعنى الشائع للأخلاق لا نأخذ به لتناقضه من جهة، ولكونه ذاتياً وشخصياً وغير قيّم بالنسبة لمفهوم الخلق عند العرب من جهة ثانية. وقد أوردنا هذا المعنى من باب المعرفة بالشيء فقط ولعله سيفيدنا في معالجة اتجاه أخلاقي ـ قيل إنه علمي ـ وراج في الثقافة الغربية بين المهتمين بالعلوم الإنسانية زمناً طويلاً ثم ثبت فشله، وهو علم العادات[2].

والملحوظ أن الإنسان قادر على أن يلتزم بالخير أو بالشر، أي أن الإنسان حر، ويملك الحرية كي يسير في الاتجاه الخير أو

---

(1) انظر كتابنا نظريات الإلزام الأخلاقي، طبع وزارة التربية، دمشق 1985، ص9.

(2) الذي نادى به لفي برول Levy Bruhl وسنشير إليه في كتابنا بمشيئة الله.

الشرير خلافاً للحيوانات الأخرى والكائنات المادية التي لا يسعها أن تخالف طبيعتها ولا أن تملك سلوكاً مغايراً لهذه الطبيعة.

إن في وسع الإنسان أن يكون كالملاك أو أسمى، وأن يسف وينحدر حتى يغدو مثل البهيمة أو أحط.

الإنسان يجد نفسه قادراً بحريته الواسعة أن يحيا بين أعلى الدرجات وأدناها، وأن يسلك مسالك لا حصر لها ولا عدَّ لمنازلها ومستوياتها وذلك بسبب حريته في الاختيار والتصرف.

لنتلو على سبيل المثال ما ورد على لسان نيشته إذ يقول: «(لنكن حرباً على الأخلاق) لنحطم هذه القيدين تحطيماً تاماً، قيد العدل والظلم كما تنص عليهما القوانين الوضعية، لنتخطَّ (في نظرتنا إلى الأشياء) ذلك الخير، وذلك الشر، ولنترك العنان لحريتنا وطبيعتنا، ويجب أن تكون لنا الجرأة كي نحيا حياة سافرة حرة وفي وضح النهار، وإذا اقتضى الأمر أن نسير فوق الجماجم فأي شيء يمنعنا أن ندوسها بل نسحقها، لنفعل ذلك دون أن نتراجع أو أن يتحرك لنا ضمير بملامة، يجب أن تكون لنا القلوب القاسية، يجب أن نرسل صرخة القتال دون وجل أو تردد ويجب أن نرسل من البوق النشوان بخمرة النصر، وحميّا الكبرياء، بوق (سيغفريد) الذي ترنم به (فاغنر Wagner) ذلك البطل الذي لم يتسرب إلى قلبه ولم يعرف ما عاش حياته معنى «الخوف».

هذا مثال عن الأخلاق في رأي نيشته الفيلسوف. فلنورد مثالاً آخر من نوع غيره جاء في سورة المائدة آية /32 قوله تعالى: {**مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً**} [المائدة: 32] هذا مثال ومثال آخر:

يوجِّه الصحابي أبو بكر الصديق أسامة بن زيد مخاطباً جيشه الذي سيّره إلى بلاد الشام: «قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها وارعوها، لا تخونوا ولا تغلّوا (أي لا تحقدوا) ولا تغدروا ولا تمثّلوا (أي لا تشوهوا) ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تقعروا نخلاً (أي لا تقطعوه) ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة

مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام وقد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له اندفعوا بسم الله».

أوردنا قول نيشته مع المثالين الإسلاميين من أجل المقارنة بين أخلاق الإيمان وأخلاق الإلحاد ونرجو أن نستفيد من هذه المقارنة فيما بعد.

**المعنى الاصطلاحي للأخلاق:**

وهي مجموعة القواعد التي تحدد طرق التعامل بين الناس وتكمن خلفها مبادئ وقيم تعد سامية معنوية، والمفروض أن القواعد تستمد من المبادئ وترتبط بها ارتباطاً معقولاً أو منطقياً، فهذا هو المفروض. لكن هذا الافتراض يصعب تحقيقه بين جميع البشر، خاصة وإن قواعد السلوك لا تكاد تكون عامة في أخلاق الجماعات، بل تختلف من جماعة إلى أخرى وذلك لأن المبادئ ليست واحدة، الأمر الذي يشكك في موضوعية الكثير من المبادئ الفلسفية، والذي يجعل المبادئ أدوات تبرير فضفاضة في أحيان كثيرة، في حين أن العلم يتخذ الوقائع سبيلاً إلى استقراء مبادئ الخلق وهكذا تنطلق الفلسفة من التأملات المذهبية الذاتية
معتمدة أسلوب الانتقاء خلافاً للعلم الحريص على الموضوعية وخلافاً لما أوصى به
الرسل والأنبياء.

**المعنى الإسلامي:**

ليست الأخلاق في الإسلام مجرد أعمال ـ بل هي أعمال وقيم وأهداف ـ مسبوقة بإرادة ومصحوبة بنوايا، تُحسب للمرء أو عليه في وعد أو وعيد، وتتم هذه الأعمال في إطار معرفة الله ومحبته وخشيته.

ولعل أوضح صورة جامعة لهذه العناصر التي ألمحنا إليها تتمثل في الآية الكريمة: قال تعالى: {**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ**

**جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ}** [فاطر: 10].

نستمد من هذا القول أن قوام الأخلاق في الإسلام:

- مبادئ من الشرع الكريم متوافقة مع الفطرة.
- أعمال ذات قطبين الهدف والالتزام أما هدفها فهو العزة باللّه في هذه الحياة وأما الالتزام فهو تقيد واعتداد بما أمر اللّه.
- لقد دلنا الإسلام على الهدف الطليق فقال: ولله العزة جميعاً.
- ودلنا على الوسائل: إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه.
- واشترط من أجل التنفيذ: الإيمان باللّه ومراقبته، والنوايا الصادقة.
- وحدّد وظيفتها الجوهرية: الخير والصلاح ـ امتيازها ومقدرتها على أن تصعد إلى اللّه بصاحبها.
- كما حدّد نتيجتها للإنسان: مثوبة اللّه في هذه الحياة وما بعدها وعقوبة منه تعالى هي عذاب شديد في الدارين.
- أما نتيجتُها الموضوعية: فهي البوار والخسران لكل مكر سيء يراد اتباعه بصدد العزة.

% % %

# الفصل الأول

## المشكلة الأخلاقية

لم نقل «المسألة الأخلاقية» بل المشكلة لأن لفظ المشكلة أبلغ في الدلالة على ما يكتنف هذه القضية (قضية الأخلاق) من إشكالات هامة، وما جرى ويجري في صددها من نقاش وممارة وتمنع وامتناع بل ومحاربة.

والملاحظ **أولاً:** أن الأخلاق ذات عناصر متعددة (يدخل فيها التصور، والفعل، والتصديق، والمرء والآخرون وما ينبغي وما لا ينبغي... الخ)، (وما نفهم وما نقرأ، ونتوقع... الخ) (وما يجوز وما لا يجوز).

ناهيك **ثانياً:** عن أن كل إنسان يفهم هذه العناصر تبعاً لزاوية رؤيته وثقافته ومجتمعه.

**وثالثاً:** يتدخل في الإشكال مقدار انصياع الإنسان لما يراه، أو مقدار توليه عنه، حماسته لما يؤمن به ويرغب فيه، أو يرغب عنه، أو إعراضه عن ذلك كله أو بعضه.

**الخلاصة:** إن في كل مشكلةٍ أخلاقية أموراً كثيرة أهمها:

- التمييز بين الخير والشر.
- الالتزام بالخير.
- تحديد مصدر الالزام.

فمن ناحية التمييز: نجد الناس يتفاوتون:

أ - فبعضهم يميز بينهما تمييز كلام: فالخير عندهم لفظ، والشر عندهم لفظ آخر، والاختلاف بينهما لفظي أو اسمي.

ب - والبعض يرون أن التمييز أمر شخصي، يختلف من فرد إلى فرد ويختلف لدى الفرد الواحد من وقت إلى آخر، فالإنسان مقياس كل الأشياء[1].

(1) هذا هو شعار السفسطائيين على لسان بروتاغوراس وهذا شعار نرفضه.

جـ ـ والبعض الآخر يميز بين الخير والشر تمييزاً واضحاً، هؤلاء يدعمون أخلاقيتهم بإيمان صريح، ومعتقدات موضوعية.

د ـ وموقف الإسلام من هذا التمييز بيّن واضح، فإذا كان الخيْر يتضمن الحسنى والإحسان والمعاملة الحسنة، وكان الشر يتضمن الإساءة والمعاملة السيئة والبعد عن الحسنى، فإن الآية الكريمة صريحة لا تحتمل أي لبس. قال تعالى: {**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**} [فصلت: 34].

ومن ناحية **الالتزام بالخير:** تقتضي الأخلاق «موقفاً» يتناسب مع القول بالتمييز وفي هذا الموقف أفعال وتصرفات، وفيه ابتعاد واستنكاف عن تصرفات أخرى، وحين تتعارض الأفعال مع الأقوال، يقع الإنسان في تناقض أخلاقي جوهري.

إن كثيراً من الناس يعرفون الخير والشر ويميزون بينهما ولكنهم لا يتقيدون بمعارفهم هذه. ولأمثال هؤلاء أتى قوله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**} [الصف: 2-3].

ومن ناحية **مصدر الالزام:** يشتد الخلاف بين المفكرين الأخلاقيين، وهنا تكمن عقدة العقد في الأخلاق:

أ ـ هناك من يقول: إن الضمير مصدر الإلزام به وللضمير مذاهب شتى يصعب تحديدها: منها القول: بأن الضمير صوت الفطرة.

ومنها القول: بأن الضمير يُحصَّل ويكتسب ويختلف من فرد لآخر، ومن مجتمع إلى مجتمع، ومنها إنه (مجرد شعور بآمر آلي، أو آمر مجردٍ من الشعور)...

ب ـ وهناك من يرى أن ما يسود بين الناس من أعراف وعادات، وما اتفقوا عليه واصطلحوا على تسميته بالخير الأخلاقي: هو الضمير الذي ينعكس على الفرد.

جـ ـ وآخرون يرون أن الضمير هو آمر الفعل، ولهذا الآمر مذاهب وآراء.

د ـ ومن قائل أنه آمر السعادة واللذة أو دفع الألم، أو تحصيل المصلحة، أو ضمان المنفعة وللمنفعة معان ومعان.. بعضها آني، وبعضها دائم، بعضها حالي، وبعضها مستقبلي، بعضها فردي، وبعضها جمعي.. الخ.

هـ ـ ومن قائل أنه الواجب، ويتخذ الواجب مقولة للعقل العملي، ويراه آمراً مطلقاً.

و ـ وفي الإسلام يتفق المسلمون على أن مصدر الإلزام آمران جوهريان:

1- ما أمرهم به الله[1]. وما يتجه لهم من تأييد وعون {**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ**} [إبراهيم: 27].

2- ما قامت عليه الفطرة: {**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**} [الروم: 30]، {**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**} [محمد: 17].

% % %

(1) وسنرى فيما بعد أن أوامر الله تعالى في القرآن تسلك سبيل الحكمة والشرح، والإقناع اللين، فيقدم النصح لقوم يعقلون، ولقوم يذّكرون، أو بوصفهم من أولي الألباب، ويحثهم على أن يحكموا عقولهم فيما حولهم، وينظروا ببصائرهم وأبصارهم. أما النصوص التي نقرؤها في التوراة الحالية كما هي واردة فيها، فإنها تحمل طابع الآمر الصارم وأنها فقط صادرة عن الرب: (أنا الرب الهكم إذا سرتم حسب أوامري، إذا حافظتم على ما أطلب) يراجع هنا: (سفر الخروج ـ وسفر الأخبار ـ وسفر التثنية).

# الفصل الثاني

## الاستعدادات الخُلُقية عند العرب قبل الإسلام

من المعروف أن رسول الله r كان يقول: «**إنما بُعثت لأتمّ مكارم الأخلاق**» وهذا يعني أن الأخلاق كانت موجودة عند العرب وغيرهم وأن عمل الدعوة التي أتى بها رسول الإسلام إنما هو إتمام لهذه الأخلاق وارتقاء بها إلى الكمال.

كان للعرب في جاهليتهم نصيب من الأخلاق، ينبع من الفطرة الصافية والشعور العفوي، ويتمثل فيما يدور على ألسنتهم في الأحاديث المروية، والأمثال السائرة، أو فيما ينظمه الشعراء، ويرسلونه حكمة قائمة تخضع لها الأجيال، وفيها حضٌّ على المكارم، وصد عن النقائص، ومن الجائز والمرّجح أن هذا شديد الوثوق بالعقائد الحنيفية وما إليها من حيث الأصل أي بعقيدة التوحيد.

غير أن هذه الأمثال والوصايا والحكم، لا تخرج عن أن تكون مواقف أخلاقية، تختص بناحية من نواحي الحياة، وتتناول أحد الموضوعات الجزئية، ولا تكون تفكيراً منظماً متسلسل الأجزاء، منسق العناصر تتضح فيه المبادئ والنتائج فتؤلف مذهباً أخلاقياً معيناً وإنما هي كما يقول (الشهرستاني): «فلتات الطبع وخطرات الفكر». أي إنها استجابات عفوية تخطر بالبال وتصبح مع الأيام حكماً سائرة وأقوالاً حافزة فمن ذلك مثلاً قول زهير في ميميته المشهورة:

ومهما تكن عند امرئ من ... وإن خالها تخفى على الناس

ومن يجعل المعروف في ... يجد حمده ذماً عليه ويندم

وقول السموءل:

إذا المرء لم يدْنس من اللوم ... فكل رداءٍ يرتديه جميل

ومن الحكم العربية المشهورة: «إن الحذر لا ينجي من القدر»، «سوء الظن عصمة»، «آفة الرأي الهوى»، «إذا قام جناة الشر فاقعد».

ومنها وصيّة زهير بن جناب الكلبي لأولاده: يا بني قد كبرت سني، وبلغت حرساً من دهري، فأحكمتني التجاربُ والأمور تجربةً واختباراً، فاحفظوا عني ما أقول: إياكم الحذر عند المصائب، والتواكل عند النوائب، فإن ذلك داعياً للغم، وشماتة العدو، وسوء الظن بالرب. وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمنين، ومنها ساخرين، فإنه ما سخر قوم إلا ابتلوا، ولكن توقعوها، فإن الإنسان في الدنيا غرضٌ تعاوره الرماة، فمقصر دونه، ومجازٍ لموضعه، وواقع يمينه وشماله ثم لا بد أن يصيبه.

●

ولما جاء الإسلام وآمن به العرب راحوا يسعون لتحقيق رسالته، ونشر أفكاره ومبادئه وهكذا اتسع وتعمق مجال تفكيرهم، واغتنت اهتمامات جديدة لديهم، وتركزت حول موضوعات وآفاق محدثة.

لقد صار عليهم أن يحملوا رسالة التوحيد إلى العالم، تلك الرسالة التي تتلخص (بإنسانية واحدة، تعيش في عالم موحد، بظل إله واحد).

- إنها رسالة قيم وأخلاق للإنسانية عامة دون تمييز: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}** [الحجرات: 13] فهي رسالة للإنسان حيث كان، لا للعرب وحدهم.

- وهي رسالة إيمان تصل بين الإنسان والعالم من جهة، وبين الإنسان والخالق من جهة أخرى.

- وهي رسالة علم وإدراك لعالم موحد دقيق ومنظم.

ولما نشر العرب رسالة الإسلام اضطروا إلى مواجهة العقليات الأخرى والأفكار السائدة، فانكبوا يترجمون بنهم مؤلفات أمم اليونان والهند والفرس والسريان ينقلونها ويتفاعلون معها، ونتجت عن

التفاعل بين هذه الحضارات أفكار جديدة، وعلوم ناشئة ومستقلة، وأخذ المفكرون الإسلاميون يكوّنون المذاهب المتسقة التي عالجت القضايا الأخلاقية، وتناولتها بكثير من الاهتمام والتدقيق.

وكنا نتمنى أن نقوم بعرض تاريخي موسع يتناول تطور المشكلة الخلقية

عند المفكرين العرب لكننا اكتفينا بملاحظة إن هؤلاء المفكرين الذين تناولوا الأخلاق، وبحثوا فيها، كانوا فرقاً متفرقة تميزت عن بعضها بنزعات شتى واتجاهات عديدة[1]:

( أ ) فمنهم من سيطرت على كتبه النزعة الدينية الخالصة، عُني فقط بالأخلاق العملية يستمدها من القرآن الكريم وأحاديث الرسول وذلك: على غرار أبي الحسن البصري الذي توفي عام 450 للهجرة، وكتب كتاب: (أدب الدنيا والدين).

(ب) ومنهم من سادت كتاباته النزعة الدينية مع شيء من التصوف وذلك على غرار أبي حامد الغزالي.

(جـ) ومنهم من سادت كتاباته النزعة الفلسفية مع الإحتفاظ بالروح الإسلامية وقد عُرف هؤلاء واشتهروا بفلاسفة الإسلام: كالكندي، والفارابي، وإخوان الصفا، وابن مسكويه (في المشرق)، وابن ماجة، وابن طفيل وابن رشد ومحي الدين بن العربي (في المغرب).

% % %

(1) لم يكن دخول الفلسفة إلى العالم الإسلامي مجرداً من نوايا التأثير السلبي وبث التشكك في الفكر الإسلامي عن طريق عرض وجهات نظر غريبة وأجنبية.

# الفصل الثالث

المبادئ الأساسية للأخلاق في الإسلام

**☐ إله واحدٌ**

**☐ محمد رسول اللّه**

**☐ الوجود جميل**

**☐ الحياة قيّمة**

**☐ الإنسانية واحدة**

**المبدأ الأول: إله واحد**

**الإيمان باللّه:**

إن الإيمان باللّه هو المنطلق الرئيسي الذي انطلقت منه أخلاق الإسلام وسائر الأديان الكتابية، فالله تعالى - هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو المعبود الذي لا إله غيره، الجدير حقاً بالعبادة، بوصفه الخالق المنعم، الرحمن الرحيم. بإسمه نبدأ في أقوالنا وتلاوتنا وأفعالنا وفي حركاتنا وسكوننا، لا شريك له ولا شبيه به، غني عن المشاركة والمشاكلة. {**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**} [الشورى: 11].

إن هذه الآية مع ما فيها من بساطة تحمل في طياتها اتجاهاً فكرياً لا أبدع منه في عظمته ولا أدق في تحرير العقل من الأساطير والخرافات، وتحول دون أمرين هما في منتهى الخطورة:

(1) إغراق الفكر والخيال في عالم الخوارق والغيبيات.

(2) كما يحول دون استغلال البسطاء وعامة الناس.

وقد استخلص علماء التوحيد من هذه الآية القاعدة الكلية: «كل ما خطر ببالك فاللّه بخلاف ذلك». وللمسلم أن يشكر اللّه تعالى إذْ

أراحه وأراح ذهنه من عناء لا نهاية له ولا طائل يطوله حَوْل ماهية الله والأساطير والمشعوذات المتعلقة به.

الحق أن الكلام عن الله تعالى في الأمور الغيبية بكتاب الله قليل الورود بل نادر، والمرجَّح أن ما جاء فيه يهدف إلى بيان سريع وحازم وأن ما يعرفه الإنسان في حياته عن الله ليس إلا جزءاً يسيراً من حقائق كبرى مثل: الخلق والخالق والمخلوقات، وأن هناك أموراً كثيرة لا حصر لها وتتجاوز الخيال والعقل البشريين والنهاية... والروح... والمصير... والعدم والوجود... الخ وكلها أمور في غاية الأهمية والدقة يذوب الإنسان أمامها وعبثاً يشتغل فيها العقل المحدود، وإذا قام ليبحث، فلن يكون أكثر من قطرة ماء أمام بحار محيطة رهيبة لا حدَّ لها ولا ساحل ولا مركب، وهكذا قطع القرآن الطريق أمام الغيبيات الأسطورية وأساليب الشعوذة والدجل، التي عاشت وعاثت طويلاً في الوثنيات واندست إلى الأديان السماوية الكتابية. قطع القرآن هذا الطريق المتعرج الأسود المفعم بالخطورة والمنزلقات إذ أتانا «بإعلانٍ منير» مثل نور الشمس في وضح النهار فيقول جلَّ من قائل: {**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ**} [الحج: 8]. وهكذا أصبحت القاعدة إن ما كان من بحثٍ أو نقاشٍ يتم بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير مرفوض وليس إلا من قبيل الجدل الكلامي الأجوف الذي لا يقام له وزن أو اعتبار في عالم الحق وجوهر الصدق.

**حدُّ العلم:** فهو في القرآن واضح بيّن، أنبأتنا به الآية التي تقول: {**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤولاً**} [الإسراء: 36].

وبغير ذلك فلن يكون عملك إلا تخميناً وضرباً من الخيال أو الخبال... أو الجدل الكلامي[1].

---

(1) لكي ندرك فكرة الله: يجب:

1- أن نكون علماء بالمخلوقات (دقة ومنفعة ومستوياتٍ وجمالاً وترابطاً).

هذا هو حد العلم أما **الهدى:** فقد ورد في مواضع كثيرة من كتاب الله لعل أظهرها وأكثرها وروداً وتلاوة بلسان المسلم ولهفة قلبه ما جاء في فاتحة الكتاب يقرؤها المؤمن عشرات المرات في النهار {**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**} يقرؤها ولا يملّ قلبه من هذه الحلاوة الروحية في طلب الهداية.

إن الهدى هنا مطلب حار يتوجه فيه المسلمون بقلوبهم المُحبة والخاشعة التي تطلب النور وترجو الحق بعد أن تُقدم لربها العظيم.

- الحمد لله (بوصفه) سبحانه.
- رب العالمين. (وهو).
- الرحمن الرحيم (وهو).
- مالك يوم الدين.

وفجأةً يتغير التوجُه فيخاطب المسلم ربه بلا واسطة أو وسيط فيقول {**إِيَّاكَ**} وما أجملها من كلمة وما أشد وقعها {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**} أنت معبودنا، حبيبنا ومبتغانا وربنا وإلهنا.

والهداية لا تكون مجرد رغبة {**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**} من الرغبات أو سؤال مسألة من المسائل، بل هي سرُّ فاتحة الكتاب، فليس من طلبٍ في الفاتحة إلا صيغة طلب للهداية وموضوعها واضح وعظيم وهو الصراط المستقيم.

إنه موضوع دقيق وذو أهمية قصوى وشروط الطلب التي سبقته واضحة هي (حمدٌ) و(ثناء) و(تمجيد) و(إعلان عبادة) (واستعانة) وردت في أفصح بيان وأقصره.

---

2- إن نهتدي بعلمنا الذي حصّلناه (بدلاً من أن نتشتت ونتوقف أو نتراجع أو نضل أو نغتر..).

3- وإن نفيد مما أتانا من الله (الكتاب السماوي: توارة أو إنجيلاً - ضاعت نصوصهما لتقادم العهد - أو قرآناً) عربياً غير ذي عوج لا يتبدل ولا يتغير.

هذه صورة للهدى كمطلب. وهناك صورة أخرى للهدى «كمخبر» يخبرنا فيه خالقنا المُنعِم فيقول: {**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ**} [الأنعام: 125].

{**وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**} [الأنعام: 125].

وهذه أيضاً صورة نفسية عميقة: تملأ الصدر والقلب بالهدى والنور بعيداً عن الضلال والزيغ والعبث.

**الكتاب المنير:**

واضح أنه الفرقان أو القرآن ومِن قَبْلِهِ ما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، وقد بقي بالحفظ من هذه الكتب السماوية كتاب الإسلام، الذي تعهد الله تعالى بحفظه[1]، وما يزال كما أنزل من عند الله سالماً من أي تغيير أو تحريف. وأما الكتب السابقة للقرآن، فقد أتى عليها البلى واجتمع عليها التحريف وبُعد الشقة والزمان وعبث العابثين[2].

وفي التحدث عن الإيمان وهداية الله كلام جادٌ وأثير لا حدَّ له في القرآن، ونعتذر لأننا اجتزأنا من هذا البحر المحيط ناحيتين فقط **أولاهما** إن القرآن حين يورد صفات الله تعالى يمنحنا صوراً عقلية هي في منتهى الرأفة والرحمة والتقريب والرقة في معظم آيات السور، فيوقظ عقولنا بلطف وعواطفنا برقة ويكون عوناً لنا، آخذاً بأيدينا بالحسنى وجميل العبارات[3]. وخلافاً لذلك نقرأ في التوراة

---

(1) {**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**} [الحجر: 9].

(2) لقد تحدى القرآن أهل الكتب هذه فقال: {**قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**} [آل عمران: 93]. وقال: {**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ**} [المائدة: 68].

(3) وما ينبغي أن نعرفه ونعلمه هو أن هداية الله الأقوام السابقة للإسلام كانت تنزل بالمعاني ويُترك للنبي أو الرسول أن يشرح ويوضح لقومه مقاصد الوحي، وذلك خلافاً للقرآن الذي نزل إلى الرسول محمد r فقد جاء من عند الله بكلمات

التي نعهدها الآن تهديداً للبشر ووعيداً وطلباً غير مترفق بالطاعة، وذلك لمجرد أن الذي يكلمهم هو الرب، وأنهم (أي البشر) عبيد صغار الشأن.

«لأني أنا الرب إلهكم، كونوا قدّيسين ـ ليحترم كل منكم أباه وأمه وليحفهما، أنا الرب إلهكم، إذا سرتم حسب أوامري، إذا حافظتم على ما أطلب منكم...» هذا ما نقرؤه في نصوص التوراة التي بين أيدي البشر الآن.

والناحية **الثانية:** إن الله تعالى ـ وهو الكبير المتعال ـ يلزم نفسه بالرحمة. قال تعالى: إنه: {**كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**} [الأنعام: 12] وقال: {**إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**} [هود: 25]. ثم ما أعظم ما يرفع العلماء إلى منزلة قد لا يطلبونها ولا يتصورونها ولا تخطر على بال أحدهم يرفعهم كي يشهدوا مع الله والملائكة «أنه إلهٌ قائم بالعدل والإنصاف والقسط» {**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ**} [آل عمران: 18]. فما أجلها من منزلة أعلنها وأعدها الله للعلماء وأولي العلم.

حقاً إن الكلام عن الإله في كل قوم، وفي كل حضارة يعطيك أوضح صورة وأجلاها عن القوم أو الحضارة ونصيبهما من الفهم وإدراكهما والحقَّ والقيم والفهم.

لهذا ولكي نتوصل إلى صميم حضارة من الحضارات، أو أمة من الأمم فلنبدأ ولنبحث في نظرية الإله فيها. فهذه النظرية تعبر عن الروح العليا التي تسودها[1] كما تعبر عن أصالتها وخصوصيتها.

وشيء آخر يحققه الإيمان بالله في **موضوع الأخلاق**، فيسمو بها وينير سبلها ويحبب الناس بها، إن المؤمن الذي يقرأ القرآن ويتلو آياته يعرف «أن الله رحمن رحيم وأنه رؤوف بالعباد وأنه غفور ودود وأنه تعالى على صراط مستقيم، كتب على نفسه الرحمة»

---

الله بالذات وحروفه وحركاته وسكناته وألفاظه ومواقفه كلها بل وتجويد قراءته وأصول تلاوته كلها من الله.

(1) Hackin and others: Asiatic Mythology, P. 29.

ويدرك أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين له ما في السموات والأرض وأن ما فيهما مسخّر للإنسان وأنه يعطي ويُنعم بلا حدود وأنه تعالى واحد أحد يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويمحو الباطل ويحق الحق بكلماته ويزيد في فضله وأنه يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء.

وفي **موضوع الحياة** قد **تشتد المعوقات** في العالم فيجأر الإنسان إلى الله.

وقد تدلهم الظلمات ويشتد البلاء، ويفتقر المرء ويضيق عليه رزقه، ويفجؤه المرض والضعف، ويشعر أنه وحيد أو أنه أحيط به، ويتعرض للهلاك، وتقوى حاجة الإنسان إلى السنّد والعون **فيحلو الدعاء** وتتعاظم اللهفة ويحلو التضرع إلى الخالق «ربنا كن معنا ولا تكن علينا، وأعطنا ولا تحرمنا، ورضنا وارض عنا، وآتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا»، ويتأكد المؤمن أنه ليس وحيداً، وإن بعد عنه الأهل أو اجتلاهم الموت. **فالله تعالى** مع الصابرين، ومع المتقين والراكعين، وأنه مع الأبرار الملحين في الطلب والساعين إلى الخير، وأنه تعالى مع المحسنين وأولي الأبصار وأولي الألباب.

والله تعالى هو الملجأ والمنجى. **يحب** المحسنين والتوابين والمتطهرين والمتقين والمتوكلين والمقسطين وهو **لا يحب** الفساد ولا المفسدين، ولا يحب الجهر بالسوء من القول، ولا يحب المسرفين ولا المعتدين ولا الخائنين ولا يحب المفسدين في الأرض ولا كل مختال فخور.

يقرأ المؤمن **في كتاب الله** ويتمعّن فيه ويهتدي بأضوائه ويتعلق به وتتفتح آماله وأعماله فيضاعف من جهوده ويبدأ دوماً من جديد، ويدنو من الشفاء والقوة والصحة والعافية، وحب الناس وتقدير الحياة، ويعتز بكل ذلك وهو يقرأ {**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**} [البقرة: 152-153].

% % %

**المبدأ الثاني: محمد رسول اللّه**

قد لا يحتاج الباحث المنصف ـ مسلماً كان أو غير مسلم ـ إلى السؤال عن أخلاق النبي محمد r. فلقد اشتهر في قومه منذ أول عهده بالحياة في طفولته وشبابه وفي كهولته، قبل البعثة وبعدها لدى المشركين والمسلمين على السواء، فيُجمع كلّهم على أنه **الأمين الصادق** الذي لم يكذب ولم يُعرف بكذبةٍ واحدة، وأنه المثال في تطابق سره وعلنه، وأقواله وأفعاله وفي الشفقة والإحسان وبسط يد المساعدة للصغير والكبير، والمسلم والفاجر بل حتى الكفار... كان r النموذج للإنسانية في إنسانيته، والنموذج في الأخلاقية بأخلاقه.

وكان السؤال الذي وجهه لدى تلقيه الوحي إلى مشركي مكة، حين أتاهم يبدؤهم بالدعوة إلى اللّه، كان سؤاله لهم: يشير إشارة واضحة وهو واثق من أخلاقه وصدق قالته ونقاء سيرته وسريرته بينهم فقال يحدثهم: هل إذا قلتُ لكم إنني رأيتُ خارج مكة راحلة فيها كذا بعير وكذا ناقة، هل أنتم مصدقيّ؟ قالوا: نعم... قال إني رسول اللّه إليكم...

المهم أنهم كانوا يحترمونه ويجلونه في كل ما يقول ويفعل، وهو يعلم ذلك، في كل ما يقول ويفعل لأنه (صلوات اللّه عليه) لا يقول إلا الحق والصدق ولا يفعل إلا الجميل الأجود الكريم المحمود على الدوام.

ونحن إذا استعرضنا لِماماً وبسرعة ما تعلمناه من أقواله وجدنا الكثير مما يرفع الرأس بالاعتزاز ويشعُّ في النفس الوثوق بقوة القضية التي يحملها. ونجتزئ من بعض أقواله على سبيل المثال قوله:

ـ إن أعظم الأعمال بعد الإيمان التودد إلى الناس.

ـ خيركم من يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف.

ـ لن تدخلوا الجنة حتى تنالوا البر، ولن تنالوا البر حتى تحابوا، أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم.

ـ إذا قامت القيامة على أحدكم وفي يده فسيلةٌ (أي غرسة أو شتلة نبات) فليغرسها.

كان الصدق والنقاء وعلو الهمة، وشرف المنبت والمحتد و... أشياء عالية كثيرة قد اجتمعت كلها في شخصه (نفسه وقوله).. ولعمري **كأن الأخلاق أحبت أن تسير على الأرض بين الناس فتمثلت في شخص النبي محمد □.**

إن الكلام في أخلاق النبي وعظيم مشاعره وسمو تعاليمه وفي حرصه وحَدَبه على الناس (كباراً وصغاراً ومسنين) بل حتى على الحيوانات، كلام أصبح معروفاً وشائعاً فلا نرى ـ في هذه العجالة ـ حاجةً إلى مزيد من الشرح وتكفينا شهادةُ المولى الحق جاءت على لسان الحق في الكتاب الحق: {**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**} [القلم: 4]. ولقد أصبح كل ذلك معروفاً يمكن مطالعته والرجوع إليه في كتب السيرة والتاريخ.

**معجزة الرسول:**

وتأييداً لأخلاق النبي ثمة معجزات للأنبياء تحسم النقاش وتبهر الأبصار فماذا كانت معجزة النبي محمد r؟

كانت المعجزة الكبرى له القرآن العظيم، لقد تحدى القرآنُ العرب أن يأتوا بعشر سور مثله، بل بشبيه مماثل من السور بل ببضع آيات.

أما النبي فقد راحت سلطته تدخل إلى القلوب، فلا يزداد هو إلا **تواضعاً،** فيحتفظ بالبساطة في أخلاقه وتعامله **بالحسنى** حتى مع أعدائه.

فيؤكد للجميع أنه بشر[1] مثل غيره من البشر {**قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ**} [الأنعام: 50]. {**وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ**} [الأعراف: 188].

والبشر يتغذون ويأكلون، ولكن النبي ما **يأكل إلا القليل** ويعيش على خبز الشعير.

يقول أنس جئت رسول الله r يوماً فوجدته جالساً مع أصحابه يحدثهم وقد عصب بطنه بعصابة فقلت لمن حولي: لِمَ عصب الرسول بطنه؟ قالوا من **الجوع**. (رواه مسلم).

وتقول السيدة عائشة زوج الرسول «**ما شبع آل محمد من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قُبض**» رواه البخاري.

لقد كان الأسودان التمر والماء غذاء محمد، حتى بعد أن فتح مكة وتدفقت الأموال لا تعد ولا تحصى على الرسول وصارت بين يديه فلا يمسها.

(1) {**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ**} [الكهف: 110].

**حيرة قريش:**

حارت قريش وتحيرت في أمر محمد، كانت تعلم أنه الرسول لم يكذب ولم يعرف بكذبة قط منذ طفولته ولكن ما باله يسفّه عقولهم ويسخر من آلهتهم، ما باله يحدثهم عن إله واحد ليس كمثله شيء ويطلب منهم أن يعبدوا هذا الإله ويزكوا أموالهم و... يقوموا ببضع حركات يقول أنها صلوات ثم ما باله يأتيهم بآيات وأحاديث يقال فيها أن الناس سواسية وأن لا فرق بين عربي وعجمي إلا بشيء يسميه التقوى، ولا فرق بين أمير وسوقة.. الخ..

يقول التاريخ: «إنه بينما كان علماء قريش جلوساً يتحدثون تعرضوا لذكر رسول الله r فاعترضهم (النضر بن الحارث)، وكان أعلمهم بشؤون الدنيا فقال مسفهاً لآرائهم يا معشر قريش: أنه قد نزل بكم أمر ما أتيتم به بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر وكاهن وشاعر ومجنون. لقد استمعتُ لما قاله محمد، فلا والله ما هو بساحر ولا هو بكاهن ولا هو بشاعر ولا هو بمجنون، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم».

لقد كان أبو جهل عم النبي وعدوه اللدود يقول: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به.

وكان r في مواجهة الآخرين: مثلاً أعلى في **الشجاعة** و**السماحة** مع **الرفق** والحزم، كان **يحب الأطفال** لم يمر على جماعة منهم دون **ابتسامة** رقيقة ونظرة حانية وكلمة لطيفة، كان يحمل عدوه على الإعجاب بما تحلى به من صدق يملأ المستمع، وصحبة ومودة و**سخاءٍ فياض**، فما خيّر بين أمرين إلا اختار **أيسرهما** وأبعدهما عن العسر إلا أن يكون فيه ما يبغض الله. كان شديد الغيرة في الحق تلك الغيرة التي تحمي الإنسان من الموت وهو حي وكثيراً ما تكون مشوبة بالحقد، وما هكذا كانت غيرة الرسول فقد كان شديد

الغيرة على الحق حيثما كانت الغيرة وسيلةً لايقاظ الصدق في الناس وبعث النقاء في الوجدان، كان **عالي الهمة** طامحاً إلى اتباع معالي الأمور، **لم ينس قط إلى آخر يوم في حياته أنه بشر** ممن خلق الله، وأنه اختاره الله ليكون **نبي العالمين وخاتم النبيين**.

ها هو رسول الله نموذج الأخلاق الرفيعة ومثالها في الإسلام.

% % %

**المبدأ الثالث: الكونُ بناء جميل وأرض ذلول**

كانت تسيطر على العقل الغربي وما تزال، فكرةٌ (ارسطية) عن الكون والوجود، فقد كان المعلم الأول يرى أن الوجود قديم والمادة أزلية، وتتحكم فيهما قوانين الحتمية والضرورة الآلية. فالمستقبل ليس إلا نسخة عن الماضي والحاضر، وكل شيء ينبئ الإنسان عن حتمية وجوده.

على أن الأمر الهام الجدير بالملاحظة تصور العقلية الغربية أن الكون يظل في معزلٍ عن الإنسان، فهو في جانب والإنسان في جانب آخر. بل إن أحدهما يظل خصماً للآخر ويسعى للعدوان عليه، إن قانون الصراع هو الذي يسودهما، وعلى البشر أن يكونوا مستعدين لرد العدوان الذي يأتيهم في كل لحظة، من كون غريب عنهم، لا يبالي بهم وقد يسعى ويأتي فينقضّ عليهم.

وكل هذا يخالف مخالفة تامة ما نراه ونعتقد به نحن المسلمين، فنحن نرى الأمور رؤية ثانية ونتصورها من زاوية بل من زوايا أخرى، يمكن تلخيصها فيما يلي:

1- لما كان خالق الكون والإنسان واحداً نتج عن ذلك خضوع هذين الأمرين المخلوقين لمشيئةٍ واحدة.

2- وهذا يعني أن هناك نَسَباً بين الإنسان والكون وعلاقات قوية ووشيجة.

3- وأكثر من هذا فإن الأرض (وهي الجزء الهام من الكون الذي يحتضن الإنسان وتتجلى فيها حضاراته) هذه الأرض قد خُلق أو

أُنشئ الإنسان فيها ومن طينها قال تعالى: {**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**} [هود: 61].

4- وكل شيء يؤكد أن أحد الشيئين يتسق ويتفاهم مع الآخر فالإنسان بمثابة مفتاح والأرض بمثابة القفل، وما عَمَلُ العلم وتأثيره في الواقع إلا من باب تفاهم المفتاح مع الأقفال، لاستخراج مكنونات الوجود.

5- وإن الغربي حيث يكتشف واقعة في الطبيعة أو قانوناً من القوانين، تجده يشعر بزهو شديد يخامر نفسه، ويقول أنه انتصر في موضوع كذا، وحقق ظفراً في مجال كذا، كما لو كان الإنسان يعيش وسط الطبيعة وكأنه (بين حيوانات شرسة).

أما المسلم فإنه يرى أن الأرض ليست فقط موطئ قدمه ومهد حضارته، بل هي طبيعة ذلول لإرادته ومصنوعة من أجله مسخرةٌ لمنافعه، وهي موضع جبهته حين السجود ومناط ارتقائه إلى الله تعالى، وفي حين أن الماء عند الغربي هو مجرد مركب كيمياوي (وطبعاً فهذا حق ولكنه ليس كل الحق) إلا أن المسلم يرى أن الماء شرط لازم لا لتكوين الحياة وحسب بل هو وسيلة ضرورية لا بد منها من أجل الدخول في رحاب الله والصلاة بين يديه، (فالصلاة تشترط الوضوء والاغتسال من أجل الطُهر) وحين يُفقد الماء، ينتفع المؤمن بالحجارة وما إليها يتطهر بها في التيمم، والمهم هو التطهر ومن الطريف أن نلاحظ أن الجنة في القرآن تحفل على الدوام بأنهار تجري من تحتها. والأمثال الشعبية في بلادنا ترى أن مُتع الدنيا تكون في الخُضرة والماء والوجه الحسن.

6- وهكذا يعتقد المسلمون أن الأرض ـ في الأصل ـ مخلوقة هادفة، والأشياء علىالأرض، ترتبط كلها بنفع غائي والغايات النهاية للأشياء تكمن في خدمة الحياة وفي قمتها حياة البشر.

7- أما الكرامة التي أعطاها الخالقُ العظيمُ للإنسان، فترتبط بعد إرادة الله بالوجود الأرضي بره وبحره، {**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى**

**كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**} [الإسراء: 70]. فالكرامة لا تخلو من مرتكز ومرتكزها الأرض. أما الطيبات التي يُرزق منها بنو آدم فهي قطعاً تُستخرج من جهات الأرض، ناهيك عن تفضيل الله تعالى بني آدم على الكثير من المخلوقات، فهو تفضيل يقوم على توفر ميزات كثيرة لعل أهمها قدرة الإنسان على البناء والتعمير على سطح الأرض والارتقاء فوق الأرض بالعقل والإيمان.

8- ويتم تعاونٌ رائع بين خلق الله تعالى في الإنبات فوق الأرض وعمل الإنسان. قال تعالى: {**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ**} [يس: 36].

**موجز القول:** أن الأرض في الحياة الإسلامية مسخرة للإنسان هي أصله، وهي موضع تأملٍ عقلي، وجمالي له.

وكونها **مسخَّرة** يظهر في الآيات الآتية:

- {**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**} [الملك: 15].

- {**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ**} [الجاثية: 13].

- {**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**} [هود: 61].

- {**وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً**} [نوح: 17].

أما كونها **موضوع تأمل عقلي** فيظهر في الآيات الآتية:

- {**وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**} [الذاريات: 20-22].

- {**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ**} [الرحمن: 33].

- {**قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**} [الملك: 24].

- {**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ**} [الجمعة: 10].

وأما كون الأرض موضوع **تأمل ذوقي وجمالي** فيظهر في آيات كثيرة:

- {**وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً**} [نوح: 17].
- {**وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**} [ق: 7].
- {**وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**} [الحج: 5].

أن الكلام عن الجبال (التي تمر مر السحاب) في كتاب الله والكلام عن الوهاد والوديان والسهول والجنان والزهور والثمار والنجوم والجبال وعن الحدائق ذات البهجة والأشجار ذات الخضرة والنضرة والماء الذي تحيا به الأرض والمطر والبحار والأنهار، والرياح التي تصرف السحب وتدفعها وتُحركها في شكل نسائم وعواصف، كل هذا يبعث في النفس الفرح والطمأنينة والبهجة ويشعر الإنسان أنه محاط بأشياء زاهية، مسخرة له ومن أجله، فهو ليس وحيداً في عالم رهيب وليس مكوناً بالصدفة العمياء، بل إن سائر ما حوله يبشره ويؤنسه ويبعث فيه الرضا والهداية والمحبة فيذكر الله ويشكره ويمجده.

يقول تعالى في سورة (ق): {**أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ**} [ق: 6-11].

% % %

**المبدأ الرابع: الحياة قيّمة وفذة**

إن من يتأمل في الآيات الكريمة التي وصفت فيها الحياة في القرآن يبدو له لأول وهلة أن الاتجاه العام حيال الحياة يقوم على تحذير المؤمنين من أن يستسلموا للغرور فيها وخداع الذات، فهي حُلوة خضرة وهي أخاذة بزينتها ماتعة في ترفها وهي تسلب بفتنتها لب اللبيب فما تَدَع فيه إلا الندامة والحسرة وهكذا يقول أحدهم يخاطب الحياة: يا دنيا أليس فيك إلا السراب؟...

وهكذا أيضاً فحين يكون الإنسان طفلاً تخدعه الحياة ويزين له الخيالُ الآمال، فيتمنى أن يكبر ويسارع بالنمو كي ينتفع ويستمتع بما ينتفع به الكبار ويستمتعون، حتى إذا دخل في سن الشباب اتسعت دوائر الأحلام عنده وازدانت بالفتن فمضى ينمي الاعتداد بالذات، وشرع ينهب الأفراح والملذات، مسترسلاً سادراً في غيّه، صريع الغواني. حتى إذا دخل في الكهولة، (وسرعان ما يُفاجأ بالشيب) اكتشف أنَّ ما كان يملأ قلبه بالأماني مفعم ومليء بكثير من الأوهام، فالأيام تكر والزمان يمضي ويتوارى من غير استئذان، والجسم يتهدم وإذا بالكهل يسعى ليقاوم الشيخوخة (إذا وصل إليها) وليحتفظ ببقايا ماء الشباب ورُوائه[1] ولكن هيهات هيهات أن يقف الزمان أو تتراجع عجلة الحياة.

وهكذا فإن شرعة الإسلام (حرصاً منها على مشاعر الإنسان لتظل متماسكة، وعلى سلوكه كي يظل وقوراً معافى)، أخبرتنا الكثير وحذرتنا مراتٍ ومراتٍ من الوقوع في مهاوي اللهو والترف ومتاع الغرور وأفادتنا ونبهتنا وأعلمتنا ثم أنبأتنا أن الحياة سريعةُ الزوال، لا يُؤمن شرها، وأنها قُلَّبٌ متحولة لا تؤمن عواقبها.

هذا هو الرأي الاجمالي وهذه هي الصورة العامة التي صوّر بها كتاب الله تعالى الحياة، ومع ذلك فإن الذي يتعمق أكثر فأكثر

---

(1) وتظهر الأمور عند المرأة أوضح وأبيّن، لأن عمر الفتنة عندها قصير (يقع بين الـ (15) والـ(45) أو بين البلوغ واليأس) وأقصر منه عندما تتعلّق بجمالها أو مالها وخلافاً له تحيا المرأة المؤمنة، فالمؤمنة من النساء، تتمتع (بشعور طيب) بوجوه الصلاح والأنس.

ويتقصّى بدقة أكبر وأوفر ما ورد في القرآن الكريم عن الحياة يكتشف أن هناك تمييزاً بين أمرين:

- الحياة في ذاتها (بوصفها حياة).
- والحياة الدنيا بمفاتنها وزخرفها.

إن الحياة في ذاتها ليست مستقبحة ولا ممقوتة في نظر القرآن[1] بل كثيراً ما تكون طيبة وحافلة بما يُرضي الله ويستنير بالنور الذي أنزله ولنمعن النظر في الآيات الكريمة الآتية:

- {**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**} [النحل: 97].
- {**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**} [الملك: 2].

ففي هذه الآية الأخيرة يستعمل مفهوم الحياة بمعنى كونها (أداة الاختبار أو الامتحان)، للكشف عن الذين يحسنون ويؤمنون ولتمييزهم عن الذين لا يحسنون، (فالحياة هنا محايدة) خلافاً للآية التي سبقتها حيث وصف القرآن الحياة بكونها «حياة طيبة».

أما قوله تعالى: {**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**} [البقرة: 179] فإن الحياة هنا أُخذت بمعنى الانقاذ، والمخاطب فيها أولو الألباب والهدف هو حصول التقوى. فأكرِم بها من حياة.

وقوله {**يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**} [الفجر: 24] فالمعنى هنا ينصب على الحياة الآخرة. (أو الحياة التي لا يعتريها موت).

وفي موضع آخر نقرأ قوله تعالى: {**وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**} [العنكبوت: 64].

(1) يراجع في هذا الكتاب: (المدخل إلى فلسفة القيم) للمؤلف.

أن الحيوان هو «الحياة الدائمة»، «والحق الذي لا زوال له ولا انقطاع»[1] فهنا ترتفع قيمة الحياة وتعلو ليستمتع الإنسان «بما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر».

وفي الكلام عن «الحياة الدنيا» تتحول الأمور عن الكلام في «مطلق الحياة». وإذا استعملنا تعبيرات المنطق قلنا أن لفظ الدنيا هو فصل نوعي والحياة جنس عام. والجنس (إذا كان قريباً) فهو يصنع مع الفصل النوعي حداً تاماً.

المهم أن الحياة الدنيا شيء يختلف عن مجرد الحياة.

لنتأمل في الآيات:

- {**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**} [آل عمران: 185].
- {**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ**} [الأنعام: 32].
- {**أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ**} [التوبة: 38].
- {**ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**} [آل عمران: 14].
- {**زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**} [البقرة: 212].
- {**مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ**} [آل عمران: 117].
- {**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ**} [البقرة: 204].

وهناك آيات كثيرة مماثلة...

وهكذا نجد أن الحياة في ذاتها ليست سيئة في نظر الإسلام، وهي تغدو سيئة حين يمازجها السلوك السيء والتصور المغرور،

(1) يراجع المختصر في تفسير ابن كثير، المجلد الثالث، ص28.

أو تميل وتجنح صوب اللهو، أو تنحرف صوب اللذات المحرمة[1]، أما إذا خلت الحياة مما يعكر نقاءها فإنها يمكن أن تكون حياة طيبة، وهي في بعض الظروف محايدة حياداً أخلاقياً (إذا صح التعبير) فتكون شيئاً ممتازاً قيماً فذاً، أو تكون شيئاً مستقيماً، وذلك تبعاً للكائن الذي يحيا حياته.

إن الحياة بهذا المعنى هي أشبه بالماء الذي يتخذ لون الإناء وحجمه وشكله. وبهذا المعنى نستطيع أن نقول: «ليست القيمة للحياة وإنما للروح التي تحيا بها» فحياة العلماء علمية (أي راقية وأثيرة) وحياة المتقين (تقيه نقية)، وحياة المجرمين[2] مجرمة وهكذا...

وعلى أية حال يجب ألا نستهين بالحياة، فمنها تتكون موجودات حية، وقيم مثلى وظروف جميلة. إن الحياة في ذاتها هدية حلوة بل هي آية من آيات الله وفائق أسراره، هدية كريمة من إله كريم لا حدّ لكرمه وإبداعه وجميل صنعه.

ويمكن أن تكون شيئاً غير ذلك، شيئاً مستقبحاً حين يهبط بها إنسان قبيح الخُلُق كافر منكِر لا يشعر ولا يبالي بأنعُم الله.

% % %

**المبدأ الخامس: الإنسانية واحدة**

فإذا كان العلم آية باهرة، فإن البيان عن النفس آية باهرة أخرى لا تقل عنها، قال تعالى: {**الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**} [الرحمن: 1-4]، وكنا نود أن نتوسع في العلوم الروحية التي عرفت في عهود الإسلام، ومنها ما سُمي بالعلم اللدنيّ، إلا أننا

---

(1) وليست كل اللذات محرمة في الإسلام قال تعالى: {**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**} [الأعراف: 32]. وقال جلَّ من قائل: {**خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**} [الأعراف: 31]، فلنذكر هنا أن الأرض جعلت كلها مسجداً وطهوراً.

(2) قال تعالى: {**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ**} [القلم: 35].

رأينا أن نكف عن ذلك خشية الاستطراد المُخِل ولئلا ندخل في ميدان التصوف بما فيه من مغيّبات وشطحات.

**الإرادة:** المادة لا تريد بل تخضع وتستجيب لما يراد بها، والإنسان يريد بمعنى أنه يتصرف ويختار وسائله وغاياته، الإنسان وحده يريد (بكل معنى الكلمة)، أما الحيوان فإنه يختار بالغريزة (إذا صح التعبير)، إن الحيوانات آكلات الأعشاب تلتقط بفمها الأعشاب التي تصلح لها وتدع ما يؤذيها أو يعرّض حياتها للخطر[1]، وتعرف ما يؤكل وما لا يؤكل في الساعات الأولى بعد ولادتها. وقد اصطلح علماء النفس على تسمية سلوك الحيوان بالآلية (أو الغريزة) فقالوا: «الآلية في علم النفس كل سلوك يعني التصرف بغير شعور»[2] أو بلا تمييز وإن الإنسان يريد بمعنى أنه يميّز. وقد اعتاد المدرسيون على تقسيم الإرادة إلى أربع مراحل هي:

تصور الهدف، المناقشة، العزم، التنفيذ

والحيوان يصعب أن يقال أنه يتصور الهدف ويعيه. إن الحصان يسير لوحده في الطريق من الحقل إلى البيت، وإذا تغيرت معالم الطريق، فإنه يضيع ويتيه ولا يستطيع أن يميز الاتجاه. إنه بحاجة إلى أن يتعلم السير في الطريق من جديد.

وأما **المناقشة:** فهي الموازنة بين الدوافع (العاطفية) والبواعث (العقلية) وقطعاً فإن الحيوان لا يملكها.

وأما **العزم:** أو القرار بالاختيار فإنه يتضمن قطع المناقشة وحسم المداولة باتخاذ موقف. والحيوان لا يملك ذلك.

أما **التنفيذ:** أو التحقيق فقد يكون عند الحيوان، ولكنه بغير فهم ولا اختيار، ويكون عند الإنسان مصحوباً بالفهم.

**القدرة:** وأبسطها القدرة على الحركة، وهي توجد عند الإنسان والحيوان، وقد دلت التجارب السيكولوجية التي أجراها كثيرون

(1) سيكولوجية الطفولة، الفصل الأول، عدنان السبيعي.
(2) سيكولوجية الطفولة، الفصل الثاني، عدنان السبيعي.

ومنهم Kellogg الذي قام بها على تربية طفله وجعله يعيش مع قرد صغير وُلد معه في وقت واحد. وقد دلت هذه التجربة على أن الحيوان يسارع إلى تكوين قدارته (في القفز واللعب وتناول الطعام والنوم) فتتزن حركاته وتصبح في وقت وجيز قريبة النضج خلافاً للطفل الإنساني الذي يتأخر تكون قدراته، ولكنه يظل مثابراً على النمو ويتأخر النضج عنده، أو ما يسمى باكتمال النمو[1]، وكلما نضج الإنسان طالت فترة طفولته ولا يعني هذا أن طفل القرد أذكى من طفل الإنسان ولكنه يعني أن ما يحتاج إليه القرد من قدرات محدودة يتعلّمها ويكتسبها مسرعاً ثم يتوقف عند حدٍ معين، ما دام متروكاً لنفسه، وقد يمكن أن يكتسب زيادة في القدرات ولكن ليس من الثابت أن يورث ما اكتسبه إلى أولاده[2].

هذا ما يتعلق بقدرةٍ بسيطة كالحركة، وأما الذكاء أو ما عُرف بأنه القدرة على تنمية القدرة، فلا مجال لمقارنة الإنسان بالحيوان فيه. [ولا مجال لأن نطيل النظر في موضوع كهذا خشية الاستطراد المخِل].

**العاطفة:** هي الاستجابة التأثرية التي تدور حول الملائم والمنافي، أو الملِذ والمؤلم، وأبسطها الرغبة، وأوسطها الانفعال وأعمقها الهوى. والهوى عاطفة فيها فكرة ثابتة تتميز باستعداد دائم للتهيج مع امكانيات فائقة على التأثر أو التأثير. وتتدخل في الهوى عوامل كثيرة كالتخيّل والإرادة والتذكر.. الخ. وكل هذا يتوفر عند الإنسان ولا يتوفر عند الحيوان.

**2- الإنسان قادر على أن يتجاوز الطين:**

لأنه كائن مكرَّم قال تعالى: {**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**} [الإسراء: 70].

---

(1) المرجع السابق، بحث النمو، ص66.

(2) المرجع السابق، بحث النمو، ص68.

وقال تعالى: {**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**} [التين: 4-6].

إن تجاوز الإنسان الطين يحمل أكثر من احتمال أو إمكان.

فهو من جهة (وهي الجهة العليا) مخلوق في أحسن تقويم، وهو من جهة ثانية (وهي الدنيا) مردود إلى أسفل سافلين وما بين الدرجتين العليا والدنيا تتكون حرية الإنسان في الاختيار.

ومجال هذه الحرية واسع سعة كبيرة تتجاوز كل تحديد وهكذا فإن في وسع الإنسان أن يسمو ويسمو حتى يُفضَّل على الملائكة (وشرطه أن يكون من الذين آمنوا بحق وعملوا الصالحات بصدق)، وفي وسعه أيضاً أن يُسف ويسف حتى يغدو أدنى من الحيوان أو أحط من البهيمة. البهيمة لا تصنع الشرور أكثر مما تسمح بها طبيعتها. في حين أن الإنسان يستطيع أن يستعين (في شره) بقدراته غير المحدودة وذكائه، وقد يتمكن من تدمير بلدان لا بلد واحد. فلا غرابة إذا وصف الله تعالى المكانة التي قد ينحدر إليها بعض بني آدم بأنها تقع في أسفل سافلين.

3- وفي مناسبة الكلام عن حرية الإنسان نواجه فكرة «الأمانة» تلك التي عرضها المولى تعالى على كائنات كثيرة مثل السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، وفي تفسير الأمانة قيل إنها الفرائض، وقال آخرون هي الطاعة.

وقال قتادة: الأمانة هي الدين والفرائض والحدود. وهذه الأقوال لا تنافي بينها بل هي متفقة وراجعة إلى التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وشرطها أنه إذا قام بها أُثيب وإن تركها عُوقب. فقبلها الإنسان لضعفه وظلمه وجهله.

يقول مقاتل بن حيان[1]: إن الله تعالى حين خلق خلقه جمع بين الإنس والجن والسماوات والأرض والجبال فبدأ بالسموات فعرض

(1) مختصر تفسير ابن كثير، المجلد 3، ص118.

عليهن الأمانة وهي الطاعة، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة، ولكُنَّ علي الفضل والكرامة والثواب في الجنة. فقلن: يا رب إنا لا نستطيع هذا الأمر وليس بنا قوة، ولكنا لك مطيعون. ثم عرض الأمانة على الأرضين: فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة وتقبلنها مني وأعطيكن الفضل والكرامة في الدنيا. فقلن: لا صبر لنا على هذا يا رب ولا نطيق ولكنا لك سامعون مطيعون لا نعصيك في شيء أمرتنا به.

ثم قرّب آدم فقال له: أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها؟ فقال آدم: ما لي عندك؟ قال: يا آدم: إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة فلك عندي الكرامة والفضل وحسن الثواب في الجنة، وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها وأسأت فإني معذبك ومعاقبك وأنزلك النار، قال: رضيت يا رب.

قال الله عز وجل عند ذلك: قد حمَّلتها لك. فكان ذلك كذلك.

وقال غيره: الأمانة في الصلاة، والأمانة في الصوم، والأمانة في الحديث، وأشد ذلك الودائع.

وعن رسول الله r أنها كما قال: «**يصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة حتى قال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل: ما أجلده وأعرفه وأعقله.. وما في قلبه حبة خردل من إيمان**».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الّله r قال: «**أربعة إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا، حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة طِعمة**[1]».

هذا وإن من المفسرين من توسع في شرح الأمانة فأبان أن الأمانة التي ائتمنها الله في الإنسان: 1- عمارة الأرض. 2- وعبادة الله. 3- وخلافته في أرضه.

**الإنسانية واحدة:**

(1) الطِعمة هي الجهة التي يرتزق منها.

كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم. هذا هو شعار الإسلام فيما يخص عموم البشر وهذا تصوره لهم.

قال تعالى: {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**} [الحجرات: 13].

يقول تعالى مخبراً الناس أنه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها (آدم - وحواء) فجميع الناس بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالتقوى ومكارم الأخلاق.

أما النَّسب فقد جاء ذكره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي r أنه قال: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر**». (أخرجه الترمذي).

وقد وردت أحاديث كثيرة بذلك، روى البخاري عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله r أي الناس أكرم؟ قال: «**أكرمهم عند الله أتقاهم**» قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: «**فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**» قالوا: وليس عن هذا نسألك. قال: «**فعن معادن العرب تسألوني**»؟ قالوا: نعم. قال: «**فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**» وعنه r أنه قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله r: «**كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان**» (أخرجه البزاز في مسنده). وعنه r أنه قال: «**يا أيها الناس إن الله تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بآبائها فالناس رجلان: رجل برٌ تقيٌ كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى**».

**العنصرية:**

تقوم على ادعاء التفوق العضوي والنفسي لشعب من الشعوب على بقية الشعوب الأخرى، إضافة إلى ادعاء النقاء العرقي والسمو الأخلاقي.

ظهرت في التاريخ عنصريات عديدة أشهرها عنصرية اليهود منذ القديم والعنصرية الجرمانية التي ظهرت مع الحربين العالميتين.

أما اليهود فيقولون نحن أبناء الله وأحباؤه خلق الأرض لنا وخلق الشعوب لتخدمنا، وقد ردّ هذه الادعاءات كتاب الله تعالى فجاء في سورة المائدة 18 قوله تعالى: {**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ**}.

أما العنصرية الجرمانية فقد حددت صفات الجنس الألماني فقالوا: إنه شعب نقي يتصف أفراده بطول القامة، وأنه عريض المنكبين ذو شعر أشقر وعينين زرقاوين وبنية تقاوم الأمراض ويتميزون بالإبداع في التفكير وينجحون في بسط سلطانهم ويتفوقون في كل شيء ويصنعون التاريخ.

لكن هذه الادعاءات لا تستقيم أمام الإحصاء يقول علماء الإحصاء:

ليس كل الألمان طويلي القامة. لنفرض أن 10% فقط ليسوا طويلي القامة يبقى 90% ينطبق عليهم الادعاء.

وليس كل الألمان عريضي المنكبين. لنفرض أن 10% من التسعين ليسوا عريضي المنكبين يبقى 80% ينطبق عليهم الادعاء.

وليس كل الألمان عريضي المنكبين وطويلي القامة ذوي شعر أشقر. لنفرض أن 10% من الثمانين ذوي شعر أشقر يبقى 70% ينطبق عليهم الادعاء.

وليس كل الألمان عريضي المنكبين وطويلي القامة ذوي شعر أشقر وذوي عينين زرقاوين. لنفرض أن 10% ليسوا زرقاوي العيون يبقى 60% ينطبق عليهم الادعاء.

وليس كل الألمان عريضي المنكبين وطويلي القامة ذوي شعر أشقر وذوي عينين زرقاوين يقاومون الأمراض. لنفرض أن 10% ليسوا يقاومون الأمراض يبقى 50% ينطبق عليهم الادعاء.

وليس كل الألمان عريضي المنكبين وطويلي القامة يتصفون بأنهم مبدعون ولنفرض أن 10% ليسوا مبدعين يبقى 40% ينطبق عليهم الادعاء.

وليس كل الألمان عريضي المنكبين وطويلي القامة يتصفون بأنهم مبدعون يبسطون سلطانهم ولنفرض أن 10% ليسوا ذوي سلطان يبقى 30% ينطبق عليهم الادعاء.

وليس كل الألمان عريضي المنكبين وطويلي القامة يتصفون بأنهم يتفوقون في كل شيء ولنفرض أن 10% ليسوا متفوقين يبقى 20% ينطبق عليهم الادعاء.

وليس كل الألمان عريضي المنكبين وطويلي القامة يتصفون بأنهم يصنعون التاريخ ولنفرض أن 10% ليسوا من صناع التاريخ يبقى 10% ينطبق عليهم الادعاء.

فما قيمة ادعاءات تنطبق كلها على 10% عشرة بالمئة من أبناء العنصر الجرماني؟

% % %

# الفصل الرابع

امتياز مفهوم الأخلاق في الإسلام

- ☐ **فقدان الأساطير**
- ☐ **تغليب العقل**
- ☐ **خلق العالم**
- ☐ **المحسوسات**
- ☐ **التوازن**
- ☐ **الفكر التجريدي**
- ☐ **الإنسان خليفة اللّه**

لقد أنتجت الخصائص الإسلامية للعطاء الفكري نتائج حضارية امتاز بها الفكر الإسلامي على غيره، جعلته فريداً بين ضروب الفكر التي عُرفت على سطح الأرض، ونوجز هذه النتائج بما يلي:

**1. فقدان الأساطير:**

لقد وقف (توحيد اللّه) وتنزيهه كالطود في وجه الخرافة والحديث عن الشياطين والجان والآلهة المزعومة، والكائنات الخرافية، فلم يسمح للأسطورة أن تنمو في ظله ما دام الإنسان يحيا في صحوه ووعيه، وحين ترجم العرب كتب اليونان والسريان والفرس، نقلوا موضوعات كثيرة (أسندوها إلى أصحابها) في العلوم المختلفة، والفنون والطب والفلسفة، ولكنهم لم يترجموا شيئاً عن الأساطير ولا استساغوا أدب الإغريق أو قصص الفرس أو خيالات الهنود. كانوا يتخيرون فيما يترجمون وكانت معقولاتهم مكينة قوية لم تسمح بتسرب اللامعقول إليهم كما يفعل بعضنا اليوم حين يترجم أو يعرّب بلا تمييز.

**2. تغليب الجانب العقلي:**

وظهر هذا في الفلسفة والعلوم المختلفة حتى التي كانت مليئة بالخرافات فإنهم أخذوا يصححونها ويطبعونها بطابع موضوعي عقلاني. لننظر مثلاً إلى علم الفلك، فقد كان إلى عهد قريب (حتى أيام فولتير) في الغرب تختلط أبحاثه بعلم التنجيم، وما احتشدت فيه الأساطير. لقد حوَّله الإسلاميون إلى علم الفلك الرصين الدقيق الذي ترجمه العلماء إلى اللاتينية. أما ابن خلدون فقد أشار منذ سبعة قرون (في القرن 13م) إلى أن «علم الفلك صناعة حسابية تقوم على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب عن طريق حركته وما أدى إليه برهان الهيئة في وضعه من سرعةٍ وبطءٍ واستقامة ورجوع»[1].

وقد ارتقى العقل في الإسلام إلى درجة تحسدها الأديان وتحرص عليها الحضارات. وها نحن نورد فيما يأتي بنصٍ أثر عن الإمام الغزالي (بين العقل والشرع في الإسلام).

إنَّ العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لا يتبين ولا يبين إلا بالعقل، فالعقل كالأسّ والشرع كالبناء، ولن يغني أسٌّ ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس، وأيضاً فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر، ولهذا قال تعالى: {**قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ**} [المائدة: 15-16]. وأيضاً فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمده، فإن لم يكن زيت لم يحصل السراج، وما لم يكن سراج لم يضئ الزيت، قال الله تعالى: {**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ**} [النور: 35] والله هو الهادي. وأيضاً فالشرع عقل من خارج العقل، والعقل شرع من داخل الشرع وهما متعاضدان بل متحدان، ولكون الشرع عقلاً من خارج سلب الله

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص585، طبعة المعارف.

تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن نحو قوله: {**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ**} [البقرة: 171] «ذلك الدين القيم» فسمى العقل ديناً ولكونهما متحدين قال: نور على نور. أي نور الشرع ونور العقل. ثم قال «يهدي الله لنوره من يشاء»[1] فجعلهما نوراً واحداً، فالشرع إذا فقد العقل، عجز عن أكثر الأمور، عجز العين عند فقد الشعاع.

**3. خلق العالم:**

سلَّم المسلمون بأن العالم مخلوق، أما كيف تم خلقه، وكيف كان قبل أن يوجد فإنهم اتخذوا من هذه الأسئلة موقفاً سوف يقترب منه الموقف الوضعي الإيجابي (الذي سيتبناه «أوغست كونت» فيما بعد)، (والذي يعتبر البحث في هذه الأسئلة خارجاً عن نطاق الإدراك الإنساني). مع الإيمان بأن العالم القائم منظم وخاضع لسببية دقيقة والفرق بين الموقفين: الإسلامي والوضعي: أن هذا الأخير يُنكر ما لا يراه أو ما لا يطلع عليه (شأن الأطفال الصغار الذين إذا غاب عنهم شيء ظنوا أنه انعدم)!..

(1) لقد توسعنا في شرح هذا النص وصدرناه بكتاب سميناه «العقل والشرع» وأشرفت على طباعته دار البشائر عام 1424هـ الموافق 2004.

**4. الاهتمام بالمحسوسات في سبيل المعقولات:**

كان المسلمون يتلون في كتاب الله: {**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤولاً**} [الإسراء: 36] فاكتسبوا تفكيراً حسياً تجريبياً في وقت مبكر كان من نتائجه تفكير عصر النهضة، لقد صنع الفكر اليوناني الأسطورة وصنع الفلسفة ولكنه لم يصنع العلم التجريبي، فهذا العلم يقتضي البدء بالمحسوسات والانتهاء بالمعقولات.

يقول غارودي الفيلسوف المعاصر[1]: إن عظمة الفكر الإسلامي تقوم على تحويل العقل من دورانه حول نفسه إلى دورانه حول العالم.

**5. التوازن والانسجام بين الإنسان أو (العالم الأصغر) وبين العالم الخارجي أو (العالم الأكبر):**

المسلمون لم يعرفوا الانطواء المفرط على النفس، ولا التأمل المفرط في المثالية إلا بعد أن ترجمت الكتب الصوفية الهندية وحقاً فالفلسفة المثالية المطلقة لم تعرف عندهم، ونحن لا نعثر على مفكر إسلامي واحد ينكر جدياً وجود العالم الخارجي على طريقة (باركلي) مثلاً.

وفي مقابل ذلك: لم يكن المسلمون أبداً من اتباع المادية المفرطة التي تنكر وجود الروح مثل مادية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ومادية الماديين الأغارقة.

**6. التفكير التجريدي:**

(1) راجع مقال الإسلام وأزمة الغرب. الندوة الدبلوماسية الحادية عشرة، ص65، بإشراف
د. علي حميدان. (الإمارات العربية المتحدة).

إن إيمان المسلمين بالله (الذي لا يقبل المشاركة أو المشاكلة) اكسبهم تفكيراً تجريدياً ناصعاً لمع في الرياضيات وفن الرسم الزخرفي بوجه خاص.

إن ابتكار الصفر، واستعمال الرموز المجردة وإبداع الجبر (وهو تجريد التجريد) يعد من الأمور الفذة التي قدمها العرب للإنسانية[1].

ومن المفيد أن نعلم أن أوربا ظلت تعتمد في دراستها الهندسة اليونانية على الكتب العربية وما ترجم عنها في القرن التاسع عشر، إلى أن اكتُشف الأصل اليوناني من كتاب اقليدس عام 1853.

أما فن الرسم الزخرفي فقد تأثر بالفكر التجريدي عند المسلمين. إن قلة اهتمام المسلمين بالصور البشرية لا ترجع فقط إلى نفورهم من الوثنية والأسطورية بل ترجع أيضاً إلى أن الجمال عند العرب المسلمين أقرب إلى أن يكون معنى تتأمله النفس منه إلى أن يكون جسداً تتلذذ به وحساً ومادة. وقد شاهد أحد فلاسفة الفن الزخارف العربية في الأندلس فخرج مشدوهاً وهو يقول: هذه ليست خطوطاً وألواناً، أنها موسيقى لونية تمددت خطوطها وسطوحها إنها اللانهاية تلونت وتشخصت فأسبغها المسلمون على الأواني والجدران وأغلفة الكتب والسيوف والثياب. وفي وسط هذه اللانهاية يبرز الإنسان.

**7. الإنسان خليفة اللّه على الأرض:**

**{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ}** [البقرة: 30].

---

(1) وقد احتفل أخوتنا المسلمون في الآستانة من أعوام بعرض مخطوط رياضي يرجع إلى ما يزيد على ثمانية قرون كانت فيه بعض الأبحاث التي ما عرفها الأوروبيون قبل ديكارت فيلسوف الرياضيات الأفرنسي، ومن جملتها ابتكار طريقة لحل المعادلات من الدرجة السادسة (س6)!.

يخبر المولى تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهيه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل ايجادهم بقوله «**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ**» أي واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة وأقصص على قومك ذلك «**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**» أي قوماً يخلفونني بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهم بعض المفسرين وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه، لكن لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقاً وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا: {**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**} وهذا سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك؟.. فإن كانت الحكمة في عبادة الله، فـ{**نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**} أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتم ولا تعلمونها، فإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل، ويكون منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعُباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقرّبون والعلماء والعاملون والخاشعون لله والعارفون والمحبون، تمييزاً لهم عما عداهم.

% % %

# الفصل الخامس

## الأخلاق والعلوم الإنسانية

- **علم الاجتماع . علم العادات والأخلاق.**
- **علم النفس والأخلاق.**
- **علم الأنثروبولوجيا (دراسة الأقوام البشرية).**
- **نقد عام**

**الأخلاق الاجتماعية:**

ظهرت النظرية الإجتماعية في الأخلاق بحماسة كأحدث نظرية أخلاقية، إذ ظهرت في أوائل القرن العشرين إثر ذيوع أفكار (كونت) الوضعية، التي تدعو إلى توكيد طريقة العلوم التجريبية ورفع العلوم الإنسانية إلى مستوى العلوم الفيزيائية من حيث أن هذه الأخيرة اعتبرت بوصفها المثل الأعلى في دقة البحث وصحة النتائج، وقد قبلت الوضعية طريقة البحث في الأخلاق فنقلها من الأسلوب الفلسفي إلى الأسلوب العلمي، ويبدو أن هذا أمر مرغوب ومستجد فبعد أن كان الفلاسفة النظريون يصفون الأخلاق ويبررونها أو يبرهنون عليها بطرقهم التجريدية والعقلية أصبحت الأخلاق تستمد من الواجب الإجتماعي، وأصبحت القواعد الأخلاقية مرتكزة إلى ضرورة الإجتماع الإنساني وما تتطلبه من التزامات تلزم بها الفرد. هذا من جهة، ومن جهة أخرى غدا مقبولاً أن تُعنى الأخلاق وتهتم بما هو كائن فعلاً في الحياة اليومية لا بما يجب أن يكون من المثُل أي الاهتمام بما هو قائم فعلاً في المجتمعات البشرية من قواعد وسنن توجه الناس في حياتهم وتحدد لهم تصرفاتهم وأعمالهم. وعلى ذلك انتقل موضوع الأخلاق من الحياة الباطنية للفرد إلى الحياة الظاهرية في المجتمع، وأصبح الإلتزام الخلقي مما

تضعه الجماعة للفرد لا مما يضعه الفرد لنفسه، بدعوى أنه لا يمكن فصل الأخلاق عن الإجتماع، ولأن الأوامر الخلقية لاتتخذ لنفسها من قيمة، اللهم إلا وسط كيان إجتماعي معين، والجماعة هي مصدر الإلزام وهي التي تؤكد أن على الفرد أن يوثق علاقته بالأفراد والهيئات الإجتماعية، وهكذا فإن الهيئة الإجتماعية تضع الأوامر والنواهي فتضغط على الأفراد وتلزمهم بالانصياع لضروراتها بطريقتين: هما الرغبة والرهبة.

يرى (دوركهايم) زعيم المدرسة الإجتماعية الفرنسية في كتابه (التربية الإجتماعية) أن الأوامر والنواهي الإجتماعية كفيلة بتحقيق النظام والإرتباط بين الفرد والمجتمع، وإنها وسيلة لتحرير الفرد لا لخضوعه، لأن هذا الأخيرحينما ينصاع للجماعة يكتسب الإحترام أولاً والمحبة ثانياً.

1- فهو يكسب الإحترام: لأن المجتمع يتبدى بالنسبة للفرد كأمر علوي سابق على الوجود الفردي، الأعلى منه بما يحويه من تراث السلف وتقاليد الكل، وهكذا فالفرد تلميذ المجتمع يتلقى عنه حكمة الماضي ويستمد منه آمال المستقبل، وبالمقابل فالعقل الجمعي أستاذ العقل الفردي يتعهده ويربّيه ويغذيه بسائر العناصر الإنسانية التي ترفع من قيمته، وتجعله يفتخر بأنه يحقق الحضارة التي صارت إليها الجماعة، والمُثل التي تخطتها الأجيال الصاعدة.

2- وهو يكتسب المحبة: لأن انصياع الفرد لأوامر المجتمع يتضمن إعلاء له لا إذلالاً كما يبدو لأول وهلة، وهذا الإنصياع يمثل انسجام الفرد مع الهيئات المختلفة التي ينتمي إليها بإعتباره عضواً نافعاً في الهيئة، وقيمة الفرد لا يحصّلها بنفسه بل بما يحقق من واجباته الإجتماعية، وبمقدرته على أدائها، وقوة شخصية المرء تتناسب مع مقدرته على التعلق بأهداب الجماعة، وعلى الرضى بتحقيق متطلباتها، ومن هنا فالرجل الفذ والناجح

في حياته الخلقية يجد نوعاً من البهجة والرضى قد يبلغ حد التفاني في خدمة الجماعة.

وهكذا يعمل الاحترام والمحبة على زيادة قوة الفرد ومقدرته على ضبط نفسه، والسيطرة على أنانيته، فلا ينصاع إلى فرديته، ولا يخضع لحاجاته وشهواته الحسية وأطماعه المادية.

وعلى ذلك يؤكد (دوركهايم): أن المجتمع سبيل لتحرير الفرد لا لإستعباده، إنه واسطة لتضامن الأفراد والهيئات.

**والخلاصة:** أن الأخلاق العلمية الاجتماعية لا تختط مثلاً أعلى تصبو إلى تحقيقه ولا تبغي الكمال المطلق لفرد خيالي مجرد عن الزمان والمكان، ولا تبتغي المنفعة الأنانية التي تتعارض مع مصلجة الآخرين، وإنما تبتغي شق السبيل أمام الفرد كي يتضامن مع جماعته بمحبتها واحترامها، إنها ترسم له الصورة التي يقدّم وظائفه في الحياة الإجتماعية باعتباره ينتمي إلى أمة معينة وأسرة معينة بالذات، ويعمل بمهنةٍ خاصةٍ ومع أناس محدودين، فهي تعلمه كيف ينسجم مع أولئك الذين يعيش وإياهم في بيئاتهم المختلفة وأوضاعهم المتباينة، وتقدم لهم القوالب الاجتماعية التي يصب فيها نشاطه وفعاليته.

هذا ولا يكتفي دوركهايم بإنكار قيمة الفرد، بل يثبت وجود عقل جماعي مشترك، وهو يدّعي أن هذا العقل الجماعي مستقل عن عقول الأفراد، وأنه ذو طبيعةٍ خاصةٍ قائمةٍ بذاتها له وجوده الخاص، وتطوره المستقل عن الأفراد.

أما القوالب الاجتماعية فهي التي يصب فيها المجتمع (النشاط الفردي)، وأهم هذه القوالب هي العرف والعادات والتقاليد والذوق والحكم والأمثال والقوانين:

1- **العرف:** وهو مجموع الأفكار والمعتقدات والأساطير، والقصص الشعبية التي تسود في قوم من الأقوام وتنتقل من جيل لآخر.

2- **العادات:** وهي أفعال إرادية في الأصل، تسود شعباً من الشعوب لدى الأفراد والهيئات وتصبح بمثابة قواعد للسلوك، وهي سنن

لها صفة الإلزام والضغط وتتضمن العقاب إذا خالفها البعض، لأنها ترتبط بالحاجات الأساسية لكل مجتمع والعادات دائمة في كل جماعة، ومستقرة وقلما تتغير إلا ببطء، ويسبغ عليها الماضي صفة القداسة، وهكذا تأتي أوامرها من طبيعتها التاريخية، تتوارثها الأجيال عن بعضها، ويظل مفعولها سارياً رغم أنها غير مكتوبة وإذا كتبت تصبح قوانين وضعية.

ومثال العادات: عادات الزواج والتوريث، واقتسام الأرباح وغنائم الحرب في الأمم قبل أن تنظمها القوانين وتسجلها بمواد مرتبة ومبوبة.

3- **التقاليد:** وهي أفعال اعتيادية يقوم بها أفراد هيئة معينة، أو طبقة خاصة دون غيرهم من أفراد الطبقات الأخرى، وبهذا تكون التقاليد نوعاً خاصاً من العادات وذلك على غرار تقاليد الزواج لدى النبلاء في العصور القديمة وتقاليد منح الشهادات التعليمية في العصور الحديثة.

4- **الذوق العام:** فهو بطبيعته لا يدوم طويلاً بل يتحول، ويختلف عما سبقه من ناحيتين: الدوام والذيوع، هو أمر نسبي يتلاءم مع بعض الظروف والمناسبات ويبتدئ عادةً كموجةٍ غامرةٍ تجدد حياة الجماعة ويشيع بين الناس بالتقليد، ولكن ما أن ينتشر بين الناس حتى يصبح مألوفاً وعامّاً فيفقد قوته وميزة الجدة فيه، عن مبتكراته القيمة التي كانت له حين ظهوره فيتوقع الناس ظهور موجة جديدة، وفي مثال على ذلك: تشكيل الثياب وموضات السيدات وما يتعلق بها من أنواع الزينة.

**والخلاصة:** أن استمرار الذوق العام يتناسب عكساً مع ذيوعه وانتشاره، فهو يعكس العادات التي تتأكد كلما شاعت وران عليها الماضي. إنه يعيش في حاضره فحسب، ولكن قد يعود بعد مدة تطول أو تقصر فيتألق بعد أن خبا ضوؤه ثم يندثر ويموت من جديد.. وهكذا.. دواليك.

**5- الحكم والأمثال:** وهي الصيغ والعبارات التي تتردد على ألسنة عامة الناس لتدبير أفعالهم وسلوكهم وقد يستعملها صغار الكتّاب وبعض القصّاصين والمتحدثين أو النقّاد الشعبيين في معالجة المعضلات الاجتماعية التي تثور في حقبةٍ من الزمان.

**6- القانون:** ويراد به بوجه خاص القانون الجزائي، لأنه يمثل الحد الأدنى من الأخلاق لأن الذين يربّيهم القانون إنما يستجيبون للقوة التي تكمن خلفه لا للضمير ولا لغيره.

وملاحظة أخيرة يجدر النظر إليها قبل مناقشة النظرية الاجتماعية ألا وهي: أن كلاً من العرف والعادات والتقاليد إذا كانت تمثل اليوم إرادة الجماعة ووجهة نظرها، فإنها كانت تمثل ذات يوم إرادة رئيس القبيلة الذي كان يفرض آراءه وتصوراته يوم كانت المجتمعات ما تزال في حالة بدائية.

وهناك مدرسة إجتماعية أخرى حاولت أن تطبق المنهج العلمي تطبيقاً أوفى قام بها تلميذا الفيلسوف الإجتماعي (دركهايم) وهما (ليفي برول) - (وألبير بايّيه)، فصنعا ماسميّ [بعلم العادات].

**الأخلاق والعلم:**

لايوجد تلاقٍ حقيقي بين موضوع الأخلاق وموضوع العلم مع ذلك يمكن القول أن الصلة بين العلم والأخلاق ليست منقطعةً فكل منهما لا يستغني عن الإنتفاع بإختصاص الآخر. إن علم الأخلاق لا يبني نظرته على العمل وحده أو على العاطفة المجردة وحدها بل يقيمها على أساس من العقل، كذلك العالِم فهو لايستغني في أبحاثه عن بعض القواعد الأخلاقية التي تكون هادياً له في بحثه. لكن هذا لايعني أن علم الأخلاق والعلم ينظران نظرةً واحدةً إلى الأمور أو يتفقان في المنهج والإتجاه.

والحقيقة: أن علم الأخلاق يأمر بما ينبغي أن يكون، مثل: لا تكذب، ويطلق أحكاماً وقيماً مثل «الكذب معيب»، أما العلم فيحدد ما

هو كائن، مثل: يغلي الماء في درجة مائة في مستوى سطح البحر. وينطلق في الأحكام التي يقدمها من الواقع.

ولما كانت العلوم جميعاً تُعنى بدراسة ما هو كائن، في حين أن علم الأخلاق يُعنى بدراسة ما يجب أن يكون فإن هذا يجعلنا نلاحظ أن كلمة (علم) الواردة في (علم الأخلاق) ليس المراد منها الدلالة على المعنى الدقيق لكلمة علم، أي المعرفة القائمة على القوانين الثابتة والدقيقة، بل الدلالة على المعنى الواسع لها: أي مجرد المعرفة.

**علم الأخلاق وعلم العادات:**

يرى (باييّه) أن موضوع علم العادات هو موضوع علم الأخلاق. لكن ما يختلف في الأمر، هو النظرة إليهما: فعلم العادات يدرس الأخلاق في واقعها (أي كما هي) كدراسة (عادات العرب الأخلاقية)، أو (تقاليد الهنود)، في حين أن علم الأخلاق التقليدي يدرسها في وجوبها أي كما ينبغي أن تكون.

ولهذا كان علم العادات علماً وضعياً يدرس الأخلاق كما هي في الواقع، وهذا يعني أن عمله قائم على تتبع المفهومات التي أنشأها أو إرتضاها جمع من الجماعات عن الحياة وتتبع عاداتهم الفردية أو الجماعية، ثم تثبيتها في لائحة وضعيّة، أما الأحكام التي تصدرها بهذا الصدد، فهي أحكام وجود أو أحكام واقع.

وخلافاً لذلك فإن علم الأخلاق هو علم معياري أي: علم يُعنى بما ينبغي أن يكون، غير أن دراسة ما ينبغي أن يكون لا تتنافى مع دراسة ما هو واقع بل تعتمد عليها، ولهذا فهي تبدأ بدراسة سلوك الإنسان في ظروف وجوده الفعلية، ولكنها لا تتوقف عنده، بل تتجاوزه إلى المثل الأعلى، في سبيل إصدار أحكام تقديرية في ضوء هذا المثل الأعلى ندعوها: أحكام قيم. وتظل القيم أكبر من المجتمع فهي تسبقه وتشرع له وأكبر من الأفراد فهي تلذهم وتظل ملزمة لهم ومحببة إليهم وهي آمرة وناهية ولها طابع التقديس.

**علم النفس والأخلاق:**

قد لا تتوفر في علمين اثنين من الوشائج والروابط والاهتمامات المشتركة والخدمات المتبادلة مثلما تتوفر بين علمي النفس والأخلاق. فكلاهما يدرس الإنسان فيُعنى بسلوكه ومشاعره كما يُعنى بإنفعالاته وأفكاره، وكلاهما يتناول الحياة السوية للبشر كما يتناول إنحرافاتها وهواجسها ووساوسها وصعوباتها. وهناك موضوعات مشتركة بينهما مثل الشعور، والإحساسات والأحكام وكلها تؤكد وجهات النظر القائمة على تقارب العلمين.

ومع ذلك فإن العالم النفسي يتناول الحياة النفسية من حيث أنها تؤلف مجموعةً لظواهر داخلية ذاتية متتابعة يصفها ويصنفها ساعياً للوصول إلى قوانين عامة، أما الباحث الأخلاقي فهو يدرس الحياة النفسية من حيث تجاوبها مع القيم، فيحكم عليها ويحدد مقدار قربها إلى الخير أو إبتعادها عنه.

والذي يتقصى دراسات علم النفس يجد أن هذا العلم الناشئ قد أضفى على الدراسات الأخلاقية الكثير من السعة والدقة، فأغناها ودقق في فرضياتها. ولما كان علم النفس يعتمد على التجارب فإنه تمكّن من تحليل الكثير من الفرضيات وأخذ يحولها من طابعها النظري إلى طابع تجريبي شبه يقيني أو يقيني كامل.

**التحليل النفسي عند فرويد:**

بدأ فرويد طبيباً مختصاً بالأمراض العصبية فكانت دراساته النفسية الأولى تستهدف العلاج بوصفها طريقة عملية بحتة، ثم نمت دراساته هذه فغدت نظرية متكاملة ترمي إلى تفسير الحياة النفسية بأكملها. عُني فرويد بدراسة اللاشعور، ومضى يلاحظ أن معظم المرضى الذين يشاهدهم يعانون من إضطرابات جنسية، بدا له أن هذه الاضطرابات ذات صلة بظاهرة الكبت، وكان الكبت يتعلق بماضي المريض وخبرات طفولته، فانتهى إلى نظرية مفادها أن النفس البشرية تتأثر في حالتي الصحة والإنحراف بالأمور الآتية: الليبيدو (مبدأ اللذة) ـ اللاشعور (أو الكبت) ـ والطفولة.

والشئ الملحوظ في التحليل النفسي عند فرويد أن ما قدمه هو أدنى إلى الفلسفة (ذات الأفكار الثابتة) منه إلى المنهج الموضوعي فقد كان فرويد:

1- مولعاً بالفرضيات، مبالغاً في التأويلات.

2- أما إيثاره اللاشعور وتفضيله على الشعور فقد كان موضع نقد وإستنكار لدى علماء النفس والمفكرين العقليين.

لقد رأوا أن تفضيله هذا ينعكس على الدراسات الأخلاقية الرصينة إنعكاساً سيئاً، وقد يكون في اتجاهه هذا متأثراً بإهتماماته الأصلية القائمة على مشاهدة المرضى الفاقدين لمشاعرهم.

3- كان إهتمامه بالجنس مثار اعتراض الكثيرين الذين لاحظوا أن الفرويدية تعد فاصلاً بين عهدين: (ما قبل الكبت) و(ما بعده) وبتعبير آخر يلاحظ الكثيرون أنه فتح الباب أمام ما يسمى (بالثورة الجنسية)، ولهذا يواجه فرويد نقداً شديداً بلا هوادة.

4- ثم أن النظرية الفرويدية (وهي أحق بأن تسمى بالفلسفة) كانت أدنى إلى التشاؤم منها إلى العلم والتفاؤل العلمي، فوق أنها تؤدي إلى تعريتها والنيل من الطبيعة البشرية والحط من كثير من قيمها.

**يونغ:** كان من أتباع فرويد ولكنه اختلف عنه وأسس جماعة علم النفس التحليلي، وكانت نقطة الإختلاف عنه هي القول باللاشعور الجمعي، فهذا اللاشعور يمثل ـ في رأي يونغ ـ الإنسان الأول، إنسان الغابة المتوحش، إن يونغ في نظر الكثيرين أكثر إغراقاً في مناهضة الأخلاق، يقول هؤلاء: إذا كانت الأخلاق نتاج وعي فردي شعوري، فإن يونغ يدفعنا إلى اللاوعي الجماعي، بعيداً عن إدراك الفرد وشعوره بالخير. والمشاهدات تؤكد أن الجماعات التي تؤيد الإتجاه الجمعي أو الكلي Totalitaire تجد عند يونغ الكثير من المنتجعات ومظاهر التأييد والدعم.

**آدلر:** إختلف مع فرويد إختلافاً بيناً عندما أعلن أن العناصر الرئيسية في نفسية الإنسان هي: عقدة النقص ـ التعويض والشجاعة الاجتماعية ـ العمل.

يقول آدلر: «إن شعورنا المتفتح تجاه الطبيعة، وتأثرنا بجمال البر والبحر وتقدير المعاني التي يوحي بها الشكل والصوت واللون، وما نحس به من الثقة والطمأنينة وسط الطبيعة في الليل الساجي، أو الطبيعة في أوقات العاصفة، كل هذا مما توحيه طهارة الحب ونقاوته، إن الحياة التي تقدّر الجمال و تُعنى به وما يفيده الفن منها والثقافة، هذه الحياة مشتقة في أصولها مما يتصف به الأفراد من شجاعة اجتماعية ورغبة صادقة في العمل النافع».

وواضح أن الاتجاه السائد عند أدلر شديد الدنو من التعاليم الأخلاقية ـ التي نرى أنها تتميز بالرصانة ـ وفعلاً فإن آدلر قمين بالدراسة لاهتمامه بالبنية العقلية الساعية إلى التكامل، والبنية الأخلاقية المتوجهة صوب دعم الشجاعة الاجتماعية والقدرات التعويضية المتفتحة في كل عملٍ نافع.

**علم نفس الطفولة:**

أفادنا الكثير مما نحتاج إليه في تعليم الأطفال والكبار، وفي تربية المربين وإعدادهم، وفي توجيه الثقافة التربوية الناضجة في الأسرة والمدرسة أما إرشاداته القائمة على ملاحظة أطوار النمو ومراحله فقد أعانت الكثيرين على معرفة كيفية التعامل الأخلاقي والاجتماعي والتربوي مع الأطفال.

**علم النفس التربوي:**

منحنا بدوره معلومات طيبة في تحديد البرامج المدرسية ومناهج التعليم وخططه، وأعاننا في معرفة متى وكيف نحصل على أفضل مردود أخلاقي وتربوي ناجح، وأبان لنا أن المدرسة للطفل وليس الطفل للمدرسة وهكذا فإنه ساعدنا كي نميز بين الوسيلة والغاية وكي نحسن الرؤية والعمل.

**التوجيه النفسي:**

وقد قام في الأصل على مبدأ الفروق الفردية وامتياز بعض الناس عن الآخرين، والعيش من أجل معرفة القدرات المميزة لكل فرد، واكتشاف الطرق الأجدى في تفتح الشخصية في مضمار الدراسة والتخصص المهني. وغير خاف على أحد ما لهذا الأمر من أثر خطير في زيادة إنتاج الفرد ومدى تفاهمه مع نفسه ومع الآخرين، فالتوجيه يحرر الفرد من فوضى الاختيار ويجعل العمل والنجاح في العمل أمراً جديراً بالتقدير عند الفرد والجماعة على السواء.

وهذه الخدمات تيسر للأخلاق أن تتحقق كما تدعم الأخلاقيين.

**علم الصحة النفسية:**

ويمنحنا معرفة (بالسواء) متى وكيف يكون، ومعرفة (بالشذوذ) أيضاً ولكن أهم ما يُعنى به هو السواء، وهو يعيننا كي نحسن الرؤية والتعامل من أجل تحقيق السواء والنجاة من الانحراف. وذلك من أجل تجنب الصراعات والأزمات النفسية العابرة أو الدائمة، وتزويد الأسرة والمدرسة والعمل بأساليب التكيف الناجح وجذوره العقلية والعاطفية والخلقية، من أجل تأمين أسباب الوقاية والعلاج.

% % %

سنجتزئ قسماً من بحثٍ قامت به «مرغريت ميد» في دراستها لبعض القبائل البدائية، تقول في هذا البحث:

«كان ماكدوغال مؤسس المدرسة النزوعية في علم النفس يعد السيطرة غريزة، أو دافعاً فطرياً بين جملة دوافع أخرى، يثيره وجود الفرد مع أفراد أدنى وأضعف، أو وجوده في موقف يشعره بأنه ذو بأس ونفوذ ينزع بالفرد إلى التحكم والتزعم وتوكيد الذات أمام الآخرين».

غير أن البحوث الانثروبولوجية كشفت لـ«مارغريت ميد» أن دافع السيطرة لا أثر له في بعض الشعوب والقبائل البدائية ففي قبيلة آرابش Arabesh التي تقطن غينيا الجديدة تعتبر السيطرة وتوكيد الذات سلوكاً شاذاً إذا بدا من أحد الأفراد.. إنها قبيلة يسودها التعاون والمسالمة والصداقة وإنكار الذات، وهم ينفرون من التسلط والتنافس ويهربون من الزعامة ولا يطيقونها، مما يحمل القبيلة على أن تفرض الزعامة على بعض الأفراد على الرغم منهم عند الحاجة.

وعلى خلاف ما يحدث في الحضارة الغربية (حيث يُشجع الطفل على التسلط والتنافس منذ نعومة أظفاره)، نجد أفراد الآرابش يستهجنونها ولا يشجعونها. فالطفل الأمريكي يُعلَّم من سن مبكرة أن النجاح الاقتصادي للفرد والتفوق على غيره هو السبيل إلى الظفر بمحبة الوالدين.. والأم الأمريكية تشعر بأنها فشلت كأم أن لم يتفوق طفلها على غيره من الأطفال، ثم تأتي المدرسة الأمريكية بعد ذلك والصحافة والإذاعة والتلفزيون في أمريكا فتؤكد هذا الاتجاه وتلح عليه.

**دراسة العدوان في قبيلة موندوغومور:**

كان فرويد يرى أن العدوان ينشأ من كبت الميول الجنسية وكبحها، لكنه ذهب في نهاية حياته إلى أن العدوان استعداد غريزي

قائم بذاته لدى الإنسان أي إنه مغروز في فطرة ابن آدم حتى ولو لم يَعْتدِ عليه أحد، فالعدوان حاجة فطرية مثل الجوع والعطش.

لكن البحوث الانثروبولوجية فنّدتْ هذا الرأي وأظهرت خطأه، فالعدوان لا يظهر البتة عند أفراد قبيلة آرابش، لكنه يظهر ظهوراً قوياً لدى أفراد قبيلة (موندوغومور) وهي قبيلة مجاورة لقبيلة آرابش وتعيش على صيد الحيوانات وقطع الأشجار، يتسم أفرادها بالعدوان المفرط والارتياب المتبادل، الرجل المثالي فيها هو الرجل الخشن الغليظ العدواني المقاتل، وكذلك المرأة. ولقد وُجد أن الطفل في هذه القبيلة يولد وينشأ في جو عنيف غير آمن، فمتى حملت المرأة كف الزوج عن لقائها، ويثور غضبه من ذلك ولا يكون مستعداً لقبول الطفل. والرضاعة مؤلمة إذ يوضع الطفل في سلة خشنة ولا يعطى الثدي إلا في الحالات القصوى ولفترة قصيرة ولكي يظفر الطفل بقدر كاف من اللبن في الوقت القصير يجب أن يرضع بقوة رضعات سريعة وإلاَّ ضاع نصيبه من اللبن، وإذا شرق الطفل ثارت الأم.. أما عملية الفطام فلا تقل في غلظتها عن الرضاع، إذ يُزاح الطفل عن أمه بعنف ويستعمل معها اللكم والشتم... وهكذا يتفتح شعور الطفل على السلوك الشرس والمواجهة العنيفة منذ نعومة أظفاره.

وتتابع (مرغريت ميد) دراستها للأقوام البدائية فترى في قبيلة تشامبولي (التي تجاور القبيلتين) فينقلب دور الرجل والمرأة ليتماثل مع ما هو معهود في الثقافة الغربية، فالمرأة هنا هي العنصر المسيطر الغالب والمتصرف في شتى الأمور. فهي تقوم بصيد السمك ونسج الشباك وغيرهما من الأعمال الشاقة، أما الرجل فيتعهد شؤون الأطفال وينصرف إلى الاهتمام بالرقص والحفر والنقش.. مما لا تهتم به المرأة هناك. ومع أن النظام الاجتماعي في هذه القبيلة أبوي، ويبيح تعدد الزوجات، وهذا من شأنه أن يغضَّ من شأن

المرأة، إلا أن النساء هن أصحاب الأمر[1] والنهي، وفي هذا تناقض لا تقبله أفكارنا.

وكان كثير من علماء النفس يرون أن مرحلة المراهقة، في كل زمان ومكان مرحلة أزمات نفسية وصراعات ترجع إلى ما يعتري المراهق من تغيرات بيولوجية عنيفة، دون اعتبار لثقافة المجتمع الذي ينتمي إليه المراهق حتى دلت البحوث الانثروبولوجية الحديثة على أن المراهقة في كثير من الشعوب البدائية ليست مرحلة تأزم حرجة بل هي مرحلة هينة تخلو من الصراعات ومن الأزمات النفسية والجنوح ومن التمرد على الكبار، ويرجع هذا إلى أنهم يسمحون للفرد في سن البلوغ أن يضطلع بأعباء الكبار وواجباتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية والتمتع بامتيازاتهم من زواج واشتراك في الحفلات والصيد.

فكأن المراهقة المتأزمة من سمات المجتمعات المتحضرة وحدها، وهي ناتجة عن طريقة تعاملها مع المراهق، إن المراهق عندنا ناضج من الناحية الفيزيولوجية لكننا نعده طفلاً من النواحي الاجتماعية والاقتصادية فنعتبر نشاطه ورغبته في الاستقلال غير مقبولة. فمن الطبيع إذن أن يستجيب المراهق لذلك بالتمرد أو العدوان والانحراف.

% % %

(1) أصول علم النفس: د. أحمد عزت راجح ص514 القاهرة.

يبدو لأول وهلة أن من المفيد والمرغوب فيه أن يدخل العلم اليقيني الثابت بمناهجه ووضوحه إلى ساحة الأخلاق. وأن تكون له المكانة اللائقة فيها. ألم ينجح العلم في مجال المادة والوجود المادي؟.. ألم يحوّل التأملات والمناقشات إلى بضائع معلبة ومنتجات؟...

لقد كان العلم قديماً رهن البحث والاستنتاج فانطلق ونضج حينما عرف طريقه إلى الاستقراء وغدا شيئاً أكثر من البحث النظري.

يبدو أن هذا صحيح لأول وهلة ولكن علينا أن نتبين في هذا الموضع ناحيتين هامتين: **أولاهما** أن علينا أن نميز بين علم تجريبي (كالفيزياء) والعلوم الإنسانية المسلكية (كعلم الاجتماع وعلم النفس والانثروبولوجيا) فموضوع الفيزياء ثابت والظاهرة الفيزيائية يمكن الرجوع إليها في كل حين، وطريقتنا في معالجتها هي التحليل، أما الظاهرة المسلكية (أو السلوكية) فموضوعها ديناميكي متحرك وطريقتنا في معالجتها هي التحليل والمقارنة والاحصاء والتركيب.

**الناحية الثانية:** لا بد من التمييز بين العلوم المسلكية نفسها والأخلاق. فالعلوم المسلكية علوم واقعية في حين أن الأخلاق معيارية. الأولى تدرس ما هو كائن والثانية تدرس ما يجب أن يكون. وأحكام الأولى تقريرية وأحكام الثانية تقديرية (بالنسبة إلى مثل أعلى) والمعرفة في العلوم المسلكية تساعد على التنبؤ بالمستقبل، أما الأخلاق فهدفها ليس التنبؤ بالمستقبل وإنما صنع هذا المستقبل.

والوقع أن المعرفة وحدها لا تصنع الفضيلة. أما الأخلاق فمهمتها الأساسية أن تُصنع الفضيلة.

إن العلم (أياً كان فيزيائياً أم مسلكياً) حيادي لا يبالي بالقيم.

لقد صنع العلم القطار ولكنه لم يحدد (ولا يستطيع كعلم أن يحدد) من يركبه ويستعمله (الأبرياء) أم (اللصوص) فالعلم يخدم كلا الفئتين.

لنضرب مثلاً حال رجلين أحدهما كريم والآخر ممسك شحيح، إنهما في نظر العلم متكافئان لأن مهمة العلم التطلع إلى الواقعة، أما الأخلاق فلا تتوخى حقيقة الموجود من حيث هو موجود، ولا تتوخى الحقيقة الراهنة بذاتها. وقد نستطيع أن نتصور فعلاً كريماً وطيباً من الناحية الأخلاقية رغم أنه ليس متحققاً في الواقع الراهن، إن فعلاً كهذا يحتفظ بصفته الفضلى وقيمته السامية، ولو تعذر قيامه في أرض الواقع فلو اقتحم شاب لينقذ طفلاً يعد شهماً ولو لم ينجح في انقاذه.

**العلم يعتمد التحليل:**

والتحليل النفسي عملية فكرية ينكفئ فيها الذهن على ذاته فيتفرع إلى فرعين: الموضوع من جهة، والذات التي تكتشف الموضوع وتحدده بغية تحليله من جهة أخرى، ولا بد من توفر نية في النفس تتخذ التحليل سبيلاً إلى تحقيق أغراضها.

فإذا تساءل إنسان في نفسه قائلاً هل الحقيقة جميلة أم قبيحة، طيبة أم سيئة؟ فإن تساؤله يكون قد خرج عن دائرة الحكم بمعيار التحليل العلمي وصار إلى إخضاع الحقيقة لقيمة بديعية (حيث الجمال أو القبح) أو لقيمة أخلاقية (الإحسان أو الإساءة) أو قيمة دينية (الحلال أو الحرام)، وإذا كان التحليل يستهدف الوصول إلى القانون، فإن الأخلاق تستهدف الوصول إلى المثل الأعلى.

ولعل من الجائز أن ننظر إلى تباين العلم والعمل خلال المنظار المعنوي الذي يحدد الأدنى والأعلى في مجال الفكر، فنجد بهذا المعنى أن العلم ينظر إلى أسفل (حيث تكون الأنا المشخصة) أدنى إلى الطبيعة، وكأن العلم يصنع جغرافية الشعور البشري الداخلي، أما الأخلاق فتتطلع إلى أعلى وتشرئب بعنقها إلى ما يجاوز الشعور

الداخلي القائم فعلاً، وتنشد المثل الأعلى أو تنشد ما ينبغي على الأنا أن تدركه وتحققه.

ولئن امتاز العلم بصفتي الضرورة والعمومية، فإن هذه الميزة العلمية ليست بميزة عند الأخلاق، لأنها تضعف شعور الإنسان بمسؤوليته، وتضعف تمسكه بكرامته كما تسلخ عن التجربة الإنسانية صبوتها أو تطلعها نحو الحرية والروحانية.

وفوق ذلك يستقيم القول إن العلم يتوخى الواحد المحدود ويستهدف غاية متعالية ماثلة في إقرار نظام طبيعي دقيق، فإذا أطلق العلم حكماً، أضمر في حكمه أن الأمر حقيقي، أي متسق داخل منظومة مفهومة طبيعية نفترض تحققها سلفاً، وإن كان المستقبل وحده هو الذي يتيح لنا فرصة إتمام معرفتنا بها.

ولكن الأخلاق لا تتطلع إلى الوحدة بل إلى اللامتناهي (وبخاصة أخلاق الإسلام التي رأينا أن الكِلم الطيب يصعد إلى الله)، (ورأينا أن مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء).

وإذا تبنّينا المثل الذي يطرقه Le Senne قلنا أن شخصاً حيادياً يختار بين خصمين لينحاز إلى أحدهما، فلو جاز أن تكفي المعرفة وحدها لكان في وسع هذا الشخص أن يتصرف تصرف إنسان ماهر، يعرف من أين تؤكل الكتف، فيحسب احتمال فوز أحد الخصمين، فينضم إليه، ولكن هل من الجائز أن يبلغ هذا الحساب مرتبة اليقين؟.. إن ذلك يقتضي أن يغض الطرف الآن عن أثر انحيازه إلى أحد الخصمين في المستقبل من جهة ويلتزم من جهة أخرى أي بغض النظر أيضاً عن واجبه الأخلاقي الماثل في ضرورة الانحياز إلى جانب من يكافح في سبيل قضية عادلة، وقد يكون هذا المكافح هو أضعف الخصمين حالياً، فمن واجب الإنسان الحيادي الأخلاقي أن يعضده ليجعله هو الأقوى. أجل إن الحل الأخير، وهو الحل الأخلاقي لا يمت بصلة إلى الحل الأول، حل التقيد الاجتماعي العلمي، ولا يخفى أن العالم الاجتماعي شأنه شأن

كل عالم ينهج في تفكيره نهجاً مجرداً عاماً إلى حد كبير أو صغير، ومثل هذا التعميم المجرد يعارض الفعل الأخلاقي، وهو فعل فردي مشخص بوجه الإجمال[1].

أضف إلى ما سبق إن علم الاجتماع يُفقِر (الأنا) حين يستولي على النفس وتغدو معرفة المرء بما يجري في ضميره كمعرفة الناظر أو المشاهِد لما يمر أمامه من غير أن يقدر على أن يسهم فيه، وبذا يفقد الإنسان تطلعه إلى المزايا الأخلاقية السامية ويهمل واجبه في العمل على تغذيتها وانمائها. وإذا عرف الفرد أن أفعاله خاضعة لآثار الواقع الاجتماعي الخارجي، زال شعوره بمسؤوليته واكتفى بالمطالبة به بدل الإنتاج الفعلي. وليس من ريب في أن خير الأوضاع الاجتماعية، بل أقلها سوءاً إنما هي الأوضاع التي تمتاز بإخلاص الأفراد لها، وحرصهم على احترامها وتوقيرها وحدبهم اليومي على نماء خصبها، ونحن إذا منعنا عن الأنا (دم الحياة) حكمنا على المجتمع بالموت. ولا بد من الانتباه إلى أن الأفكار الجاهزة والماثلة في المجتمع لا تمثل الحقيقة الصادقة في جميع الأحوال. وكذلك الأمر فإن اتفاق كلمة المجتمع حول ناحية أخلاقية معينة لا يعني بالضرورة اتفاق هذا المجتمع حول الخير والفضيلة. ألا نرى مثلاً أن أمة بأسرها تتجه لتعتنق نزوة قائدها المتهور؟؟[2]. فتصاب كلها بالعدوانية نتيجة اندفاعها بالعدوى صوب العدوان؟؟... إن هذا هو ما كانت تفعله النازية في ألمانيا، وما يصنعه قادة اسرائيل بالاسرائيليين والعرب.

**موجز القول:** إن النتائج التي يحققها علم الاجتماع لا تلبي مزاعم أنصار هذا العلم في ميدان الأخلاق.

وبالمثل يمكننا أن نقول إن علم النفس ليس أحسن حظاً من علم الاجتماع في ضمان مطالب الأخلاق، فهو في أحسن ظروفه يقدم لنا

---

(1) Le Senne Traité de morale générale P. 505.

(2) {**قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**} [غافر: 29].

تحليلاً للانحراف أو السواء، إنه يرسم الماضي ويعد المستقبل امتداداً له (وهذا منهج العلم ولا يمكن اعتباره منهجاً للأخلاق).

والنقد الذي وجهناه إلى علاقة المعرفة الاجتماعية بالعلم الأخلاقي يمكن أن يوجَّه إلى علاقة المعرفة النفسية بالعمل الأخلاقي أيضاً.

ناهيك عن أن بعض تصرفات النفسيين يمكن أن تكون غير أخلاقية فعلاً، وذلك حين يقومون بأعمال ما يسمى بغسل الدماغ، أو بتكوين ايحاءات سالبة تفتقر إلى الخير بل وقد يكون قوامها الشر.

وأياً كان الأمر فإن وجهة النظر العلمية هي التخصص، فالعالم النفسي والاجتماعي والانثروبولوجي كل واحد من هؤلاء إنما يطل على الحقائق من زاويته الخاصة، وبالتالي فهو لا يرى من الحقيقة الكلية إلا ما يسمح به العلم الذي ينتمي إليه. وسيكون نصيبه من الحق جزئياً ولا يواجه إلا «بعض الحقيقة».

وشيء أخير كبير الأهمية: إن عالم النفس الاجتماعي (أو عالم الاجتماع أحياناً) يأتينا باحصاءات عن عدد المدمنين على الخمر مثلاً أو على الهيروين هو كذا أو كذا... إذا أتانا بعد حين باحصاءات تشير إلى تفاقم وزيادة عدد المدمنين (أو زيادة الهدر الاجتماعي والاقتصادي بسبب الإدمان) أو تشير إلى أن فئات من المواطنين الأصغر سناً أو المواطنات الأكثر ضعفاً قد بُليت بالإدمان... فماذا عساه يفعل علم النفس إزاء تورطات من هذا النوع؟ وكيف يكون السبيل إلى خدمة من يحتاجون إلى هذه الخدمة في تحريرهم من الإدمان؟.

وفي مقابل ذلك نحن نرى (والأمر يقع في كل مكان فوق الأرض) أن الذين يندبون أنفسهم لأعمال البطولة الأخلاقية فيتعرضون إلى أخطار حقيقية في معاشرتهم المجرمين أو المدمنين أو فئات المنحرفين الجنسيين وما تنتشر في أوساطهم أمراض وأوبئة عضوية أو سلوكية ونفسية... هؤلاء الذين يقومون بخدمات لهذه الفئات من الناس لا يثابرون ويتابعون إلا حين يكونون من الممتازين

في دينهم ومن أصحاب التقوى والأخلاق وهذا هو ما يشهده المحايدون من العلماء وما يمكن أن يتثبت منه القاصي والداني.

أما الأبحاث الانثروبولوجية فلا تصنع إلا أن تعرض علينا (ومن وجهة نظرها الخاصة) صوراً لأناس أو قبائل أو أناس غير متورطين، ينتمون إلى البشرية، ويفتقرون أحياناً إلى النصيحة والمعونة، لكن هذا العلم لا يصنع شيئاً بوصفه علماً ومعرفة فهو محايد بطبعه ورسالته العلمية.

إلا أن توفر رجل (أو هيئة) هداه الله فمضى يعمل بإيمانه العميق وتلبية نداء الله في فعل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيكون من عباد الله المفلحين، ولكنه ليس بالضرورة من العلماء الانثروبولوجيين وقد لا يكون على علم بعلم الاجتماع أو علم النفس فهو من الناجحين وإنما له قيمة كبرى رغم جهله بهذه العلوم.

% % %

# الفصل السادس

دراســة مقارنـة
بين أخلاق الإسلام والأخلاق الفلسفية

إذا كانت الأمور إنما تظهر بأضدادها، فمن المفيد أن نطّلع على صور التخلق في مختلف العصور والحضارات، إن هذه الصور ذات فائدة مزدوجة فهي من جهة تمنحنا رؤية واضحة لبعض المفاهيم الأخلاقية المقترحة، وأخصها المفاهيم الفلسفية. وهي من جهة ثانية: تطلعنا على العوامل والأسباب التي جعلت الأخلاق الفلسفية نسبية وأدنى إلى الذاتية والمعرفة الشخصية. وهذا ما أدى في رأي الكثيرين إلى التنصل منها وإبدالها بالعلوم الإنسانية أو المسلكية: (مثل علم النفس وعلم الإجتماع وعلم الأقوام البشرية).

قوام المسألة الأخلاقية هو «التمييز بين الخير والشر» وبيان الطرق و الأساليب التي تعين الإنسان كي يحقق الخير وينأى عن الشر.

وقد نُظر إلى هذا التمييز من خلال مناظير مختلفة شتى، لعل أهمها منظاران أو وجهتان في النظر:

أ ـ منظار المؤمنين بالخير: (من أتباع الأديان والأنبياء بوجه خاص) و(من بعض الفلاسفة).

ب ـ منظار الملحدين من الدهريين والفلاسفة الوضعيين.

أ ـ **أما المؤمنون بالخير** وبقدرة الإنسان على التمييز بين الخير والشر فهم يرون: أن فكرة الخير والشر قديمة في الإنسان ومنبثة في صميم الفطرة الإنسانية، وأن الإنسان منذ كان إنساناً على الأرض كانت فكرة الخير بعض ما حفلت به طبيعته الممتازة السامية، يسمو بها عن جميع الطبائع الأخرى (من حيوانية أو مادية) وذلك لسببين إثنين:

- إمتلاك الإنسان العقل المميز والفكر السديد.

• ورحمة الله بعباده (فأنعم عليهم برسالات السماء) وهذا هو ما نعنيه حين سمينا كتابنا «أخلاق الإسلام بين الفطرة والفكرة».

ب ـ **وأما الدهريون وجماعة الفلسفة الوضعية** فيرون أن فكرة الخير والشر إنما وصلت إليها الإنسانية بعد تجارب طويلة وخبرات متنوعة، وأن ليس لها أي معنى قدسي في الطبيعة الإنسانية. إنها عندهم لا تعدو من الجمادات المنحطّة لم تكن تعلم شيئاً عن هذه الفكرة إلا بمقدار ما يعرفه عنها اليوم سكان الغابات من الضواري والوحوش. وكما يقول هوبز: «لم يكن الإنسان إلا ذئباً على أخيه الإنسان».

وقد ثارت خلافات واسعة بين فرقاء المؤمنين والدهريين. وعُني بعض الباحثين في إستقصاء هذه الخلافات حول فكرة الخير والشر لا من ناحيتها التاريخية بل من حيث ناحيتها الذاتية أو حقيقتها، فظهرت الفلسفات الأخلاقية أو المذاهب الفلسفية في الأخلاق. لقد سبقت الفلسفة العلم ولربما مهّدت له السبل كي يتكون.

ولهذا فنحن نستطيع أن نفهم العلم إذا فهمنا المعارف التي سبقته وهي: الفلسفة. لقد كان الفيلسوف في أحسن الأحوال عالماً غير متخصص، ولم يكن هذا عيباً فيه أو مأخذاً يؤخذ عليه، فالفترة العقلية كانت تقتضي مثل هذا النوع من المنهج الفكري.

لكن الخطأ بل الضلال الكبير الذي إنساق إليه الفكر الفلسفي هو جنوحه صوب التأمل الشخصي والإندفاع في تكوين المذاهب ولهذا فإن المذاهب الأخلاقية الفلسفية متعددة لاحصر لها، ولهذا رأينا أن ننتقي منها ونختار، فاخترنا نوعين فقط:

ـ نوعاً إيجابياً وجدناه قميناً بأن يخدم الأخلاق الإسلامية لتوازنه وحرصه على قضية الأخلاق، أو لتأثيره في بعض الأفكار التي عرفت في تاريخ الفكر الإسلامي أمثال: سقراط، أفلاطون، أرسطو ابيكيت، وأما لتأثيره بالاتجاهات الإسلامية بالذات مثل (كانت) الذي تقرأ له فتشعر وكأنك تطالع في فكر إسلامي.

ـ أما النوع الثاني من المذاهب الفلسفية فهو النوع السلبي الذي جنح بشدة في مناهضة التوازن الإخلاقي وذلك مثل ما قدمه السفسطائيون وارستيب وهوبس وميكافيللي، والمسلم الذي يطالع كتابات هؤلاء يشعر بأنعم الله تعالى عليه إذ هداه إلى الإسلام، ولم يجعله واحداً من الضالين أعداء الحق، والمناهضين للخير، فلنذكر قوله تعالى: {**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**} [البقرة: 257].

وها نحن نشير باقتضاب إلى بعض المذاهب الفلسفية.

**السفسطائيون:** كانوا فئة تتنقل في بلاد الإغريق همها إثارة المشكلات أمام الفكر والريبة والاستحواذ على عقول الناس وأموالهم، وقد اعتبروا كلاً من الخير والشر، والعدل والظلم، والحق والباطل أموراً نسبية لا ثبات لها في نفسها ولا قوام، وإنما هي تقوم تبعاً للرأي الشخصي وجوداً وعدماً. وقد تزعم «كاليكلس» فكرة أن القوة وحدها هي الجديرة والتي يمكنها أن تجعل الخير شراً والشر خيراً، وإذن فلا حقّ ولا عدل ولا حرية ولا قيد ولا ضمير ولا فضيلة إلا بما شاءت القوة.

كانوا يقولون إن على الإنسان العاقل أن يسعى لمصلحته مهما كانت الوسائل التي يستعملها كما أن عليه أن يتغلب على خصمه بأية طريقة (بالجدل أو العنف).

وفي مثل هذا الجو الغائم من الريبة والشك، بثّ «بيرّون» تعاليمه بدعوى ألاّ شيء يُعد يقينياً، بل كل شيء يكتنفه الشك، إنه يرى أننا نظل على جهل بحقائق الأمور، وما ندري عن شيءٍ شيئاً. والطريف (أو المؤسي) في الموضوع أن «بيرون» عندما مات، لم يأبه لموته أحد من اتباعه أو تلامذته وبقي ملقى في الطريق وجميع من حوله يشك في موته! فكان موقفهم من موته «شكاً» مطابقاً للتعليمات التي بشر بها وتلقفوها منه، وقد رأى السفسطائيون أن الرجل إذا مُنح عقلاً قوياً يمكنه من اكتشاف طرائق للخروج على

القانون وإذا أُعطي شجاعة ممتازة تمكنه من دعم آرائه وتأييدها فلا شيء يمنعه من أن يخرج عن هذه القوانين يطلق لنزواته العنان، حتى لو كان في ذلك ما يضر الآخرين.

وقد أتى **سقراط** فجعل عنايته تنصب على إظهار عجز السفسطائيين وفضح غاياتهم ووسائلهم. وجملته الشهيرة «اعرف نفسك بنفسك» تعد واحدة من الأفكار اللامعة بحق. يقول سقراط «أليس من الواضح أن الإنسان يجد في هذه المعرفة أعظم الفوائد، وأن أكبر الأضرار تنجم عن جهل الإنسان بنفسه؟ ألا ترون أن كل من لا يعرف نفسه ويسرف باستعمال ملكاته وقواه، لا يعرف كيف يقدّر الناس والأشياء ولا يخرج من خطأ إلا ليقع في ضلال ويظل كاهله ينوء بالشقاء؟؟ إن معرفة النفس تعطي الإنسان الظرف الضروري ليستمد من الحياة ما يمكنها أن تجود به بل ما يجب أن تمنحه، وإذا تساءلنا عن غاية الإنسان من معرفة نفسه والتقيد بالفضيلة وجدنا أنه يهدف إلى «السعادة» والسعادة لا تنجم عن أمور مادية وإنما هي صورة لحالة نفسية أخلاقية، وتتجلى في الانسجام بين رغبات الإنسان والظروف التي يكون فيها.

قال سقراط يخاطب انتيغون: «الرفاه والأبهة والجاه، تلك أقانيم السعادة في نظرك: أما أنا فإني أرى أنه إذا كان من خصائص الإله أنه لا يحتاج إلى شيء، فإن مما يقربنا إلى الله أن لا يحتاج الإنسان منا إلا إلى قليل. وبما أنه لا أكمل من الله فإن القرب منه دنو من الكمال».

ويقول في موطن آخر: «ليست السعادة في اكتناز الذهب والفضة، وإنما
هي في سلوكنا الحكيم تجاه حاجاتنا ورغباتنا. إن من السعادة تقنين الرغبات وضبطها».

وأخيراً يجب ألاّ نغادر سقراط قبل أن نفيد من فكرتين وردتا على لسانه:

1- لا يعمل الإنسان الشر باختياره.

2- الفضيلة ثمرة العلم.

فسقراط يرى أن الإنسان لا يأتي الشر وهو يعلم أنه شر فيتصرف بالسوء بكامل وعيه وإنما يحدث تصرفه السيء حيث يكون جاهلاً به. إن أساس الأخلاق هو المعرفة فمن عرف الفضيلة وأدرك الخير حق الإدراك وجد نفسه بطبيعة الحال منساقاً نحو خيره أي نحو سعادته. إن العبارة الأولى يمكن تفسيرها بالقول: «لا ينصرف الإنسان عن سعادته باختياره» وأما العبارة الثانية فتلخص المذهب العقلي عند سقراط الذي يرى أن الفضيلة لا تنتج إلا عن العلم ومن صنع الفضيلة وهو جاهل بها كان غير مدرك لما يفعل، وكان أقل شأناً ممن يصنع الفضيلة وهو يدرك قيمتها ومبلغها من الفضل.

**الأخلاق عند أفلاطون:**

يبني أفلاطون الأخلاق على أساس نظريته في النفس البشرية. وعلى هذا الأساس أيضاً يقيم نظرياته في السياسة والتربية. وهو يعتقد أن النفس البشرية كانت خالدة في الأصل علوية سماوية ثم حدث أن هبطت من علياء سمائها إلى الأرض فتلبست بالمادة أو الجسد، وغدت تتألف من قوى ثلاث هي: قوة الشهوة والغضب والعقل. وهكذا تتدرج القوى في شرفها من الأدنى إلى الأعلى أحطها الشهوة (ومكانها البطن) وأوسطها الغضب (ومكانه الصدر) وأعلاها العقل (ويتوضع في الرأس). ثم إن لكل قوة فضيلتها، ففضيلة الشهوة العفة، وفضيلة الغضب الصبر أو الحلم، وفضيلة العقل الحكمة. وكل قوة تحرز فضيلتها إذا هي حكَّمت العقل، وهكذا فالعفة لا تكون إلا بسيطرة العقل على الشهوة، والحِلم لا يتكون إلا بسيطرة العقل على الغضب، أما الحكمة فتتأتّى من إدراك العقل ذاته وضبطه لنفسه. وهكذا فحين تتحقق فضائل النفس تفيض فضيلة رابعة هي فضيلة العدالة، فالعدالة ليست فضيلة قائمة بذاتها إذ لا توجد قوة خاصة بها إنما هي تتكون منذ أن يتقن الإنسان السيطرة بعقله على القوى الثلاث ويستخرج فضائلها.

**أرسطو:**

اتخذ هذا الفيلسوف مذهباً وسطاً في كل شيء، في الفلسفة والأخلاق والسياسة. وقد نال هذا الفيلسوف حظوة عالية عند العرب فجعلوه (بسبب اعتداله وتوسطه) بمثابة المعلم الأول وأطلقوا عليه هذا الاسم.

ففي الفلسفة اتخذ مكاناً وسطاً بين مثالية أفلاطون وحسية الماديين.

وفي الأخلاق عُني بتحليل السلوك النفسي عند الإنسان، فدرس أعمال الإنسان كما هي في واقعها، ثم درسها كما يجب أن تكون في نظره. وظل في ذات الوقت يحفظ للمثل الأعلى (الذي استقاه من معلمه أفلاطون) مكانته السامية ومع ذلك فقد عُني من هذا المثل بالجانب العملي التطبيقي فقيل بحق: أنه أنزل أخلاق أفلاطون من السماء وأقامها على الأرض ولم يكن الفرد وحده موضع اهتمام (أرسطو) بل عُني بدراسة كيف يجب أن يكون عليه حال الأسرة وحال المدينة.

فأتانا بعلوم تطبيقية ثلاث هي: الأخلاق ـ علم تدبير المنزل ـ علم تدبير المدينة.

الأخلاق تنصب على الفرد وعلاقاته بالآخرين.

وتدبير المنزل يدور حول قواعد الحياة الأسرية.

وتدبير المدينة يدور حول قواعد الحياة المدنية.

**الفضيلة وسط:**

كثيراً ما يُلقب مذهب أرسطو في الأخلاق بمذهب الحد الأوسط «إذ أن الإفراط على الأمر يعد خطيئة والتفريط أمر مذموم، أما التوسط فهو وحده الجدير بالتقدير والثناء». «لا تصنع شيئاً أكثر ولا أقل من اللازم وبذلك تستقيم أمورك على الفضيلة»، «إن الفضيلة

وسط بين رذيلتين فالشجاعة وسط بين التهور والجبن (وكلاهما رذيلة) والكرم وسط بين التبذير والشح، (وكلاهما رذيلة).

**الفضيلة والسعادة:**

ولم يشذ أرسطو عن غيره من الفلاسفة اليونانيين في اعتبار السعادة غاية الأخلاق وغرضها النهائي، بل أوضح أن السعادة تتوفر لأولئك الذين يحيون تبعاً لما توصي به الفضيلة الكاملة. إذن فالسعادة هي الغاية الأخيرة التي تكتفي بنفسها أي أنها الخير الأسمى الذي يُبتغى لذاته وهكذا يفرق أرسطو بين أنواع ثلاثة من الخيرات: خيرات الجسم (وتظهر في اللذة). خيرات المجتمع (وتظهر في الجاه والثروة) وخيرات النفس (وهي أعلى درجات الخير).

أما اللّذة فهي سعادة البسطاء والعبيد، وأما الجاه ومظاهر المجد فليست بالسعادة النهائية لأنها لا تُطلب لذاتها أولاً وهي مُلك لمن يوزعها لا لمن ينالها ثانياً. ولم يبق إلا خيرات النفس (من تأمل وتفكُر) وهي الجديرة بأن تسمى الخير الأسمى لأنها تجعلنا نتشبه بالإله الذي يكتفي بنفسه. ومع هذا فإن أرسطو لا يدعو إلى استبعاد أنواع السعادة الجسدية والاجتماعية لأن حرمان المرء منها يجعل حياته منغصة، وإذن. لا بد للمرء أن يكون متمتعاً بالصحة والثروة وانسجام الأسرة حتى يتسنّى له أن يتفرغ ويخلو إلى التأمل والتفكر.

**اريستيب:**

يرى أن غاية الإنسان القصوى هي اللذة مهما كانت، وإذن فيقتنصها بمجرد ظهورها: وهذا معناه اطلاق العنان للشهوات واقتناصها بأية وسيلة شريفة أو غير شريفة، أي أن هذا يعني أيضاً: الفوضى الأخلاقية والحياة بلا مبدأ ولا قاعدة. فانظر وتأمل واحمد الله على الإسلام.

**ابيكتيت:**

لم يترك كتاباً نقرؤه بل كان يناقش الناس على طريقة سقراط، ولقد لخص فلسفته الأخلاقية في نقاط أهمها:

1- يجب أن نميز في كل شيء بين ما في استطاعتنا وما لا يدخل في امكاناتنا، فالنوع الأول هو أفكارنا وحركاتنا ورغباتنا، والثاني مثل إحراز الصحة والرتب والمناصب. إذن فلنجعل سعادتنا فيما يدخل في استطاعتنا بأن نصنعه على خير وجه وأحسنه، ثم لا نكترث بسوى ذلك.

2- على المرء أن يكون حراً سيداً لنفسه، والحرية لا تكون بإرضاء الرغبات بل بضبطها والسيطرة عليها.

3- إذا رغبنا في شيء محبب أو متاع جميل فلنتذكر قيمته الحقيقية، ولنحاذر أن ننخدع فيه (آنية الفخار الجميلة قابلة للكسر، وإذا كسرت فهذا ينبغي ألا يكون موضع أسف...) هذه هي الحياة أنها فناء. ولا شيء يدعو للأسى أو التعلق الشديد إذا غابت.

4- إن دورنا في هذه الحياة شبيه بدور الممثلين في المسرح، يحدده لنا صاحب المسرح. وسواء أكان هذا الدور قصيراً أم طويلاً، ممتعاً أم غير ممتع، دور ملك أو شحاذ... فالدور دور وسينتهي وما علينا أن نقوم به، فبهدوء ونفس هانئة.

5- ليست الأشياء هي التي تفرحنا أو تحزننا، وإنما يفرحنا ويحزننا هو أفكارنا عن هذه الأشياء وإذا استطعنا معرفة هذه الحقيقة تجاوزنا الكثير من متاعبنا.

**نماذج فلسفية أخرى في الأخلاق:**

**أخلاق (كانْت) Kant:**

وقد كان قد تأثر بنزعته المثالية المتفاعلة مع مزاجه الصارم من جهة، وبالتربية الدينية التي تعهدته بها والدته من جهة أخرى.

وتتلخص فلسفته بالنقدية Criticism، والمقصود بالنقدية: أن على الإنسان أن يتبين قبل أن يناقش ويبحث في شؤون الحقيقة والوجود

ومما وراء الطبيعة: أن يستفهم هل في إمكان العقل أن يجول في هذه الميادين، وهل هو مكوّن على نحو يمكننا من إدراك حقائق الوجود وتناول ماهياته؟.. لقد خلص الفيلسوف (كانْت) إلى أن العقل عاجز في ذاته عن إدراك ماهيات الوجود وإن جل ما يفعله أن يصوغ معطيات الحواس في قوانين، وهي بدورها لا تعبر عن الوجود في ذاته بل كما ندركه أي الوجود في ذواتنا. وهكذا يرى أن العقل النظري (العقل الخالص) عاجز عن الخوض في موضوعات (ما بعد الطبيعة) وأبحاثها (الروح ـ الإله ـ ما وراء الحس ـ ومصير الإنسان).. ولكنه بعد أن نفى قيام علم يقيني لما وراء الطبيعة بالفكر التأملي (المحض أو الخالص) نجده قد عاد إلى أبحاث ما بعد الطبيعة عن طريق (العقل العملي): ومن ذلك قوله: «إذا كنت لا أدرك حقيقة الله بعقلي المحدود ـ فلا شيء يمنعني من أن استشعر عظمة الله بإيماني اللامحدود».

**نظرية كنت في الواجب:**

أقام (كانْت) Kant نظرية في الأخلاق على مفهوم دقيق هو مفهوم «الواجب اللاشرطي» أو الواجب المطلق ويمكننا أن نلخص أفكاره بالنقاط الآتية:

1- الإرادة الطيبة أو بلغة الإسلام (النية الطيبة) هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُعد خيراً على الإطلاق دون قيد أو شرط، هناك خيرات نسبية مثل الذكاء والشجاعة والمال والجاه والسلطة، فهذه خيرات ولكنها يمكن أن تصلح كوسائل لفعل الخير أو الشر على السواء. لنأخذ مثلاً فضيلة الشجاعة أنها فضيلة ولا ريب فيها ولكنها إذا وجدت لدى مجرم، فإنها تجعل منه مجرماً خطيراً لا حدَّ لاجرامه. وكذلك يكون الذكاء والمال. أما الإرادة الطيبة (أو النية الخالصة) فهي الفضيلة الوحيدة التي يمكن أن تُعد «خيراً في ذاته» لأنها تستمد خيريتها من ذاتها، أي باعتبارها غاية لا وسيلة.

2- الإرادة الطيبة غاية في ذاتها[1]، فهي لا تستمد طيبتها من النجاح أو بلوغ الغاية المنشودة بل إنها (أي النية الطيبة) تظل خيرّة ولو عجزت عن القيام بما تقصد إليه، ما دامت قد بذلت قصارها وتظل خيرة ولو لم تصل إلى السعادة. [ففي الإسلام: نية المرء خير من عمله].

3- الواجب لا العاطفة شرط الإرادة الطيبة: فكل عمل نقوم به بتأثير الرغبة أو الميل أو العاطفة لا يمكن أن يكون أخلاقياً، لأنه كان مشروطاً بهذه الأمور العاطفية، فإذا ذهبت العاطفة فأين النية الطيبة؟.

4- الفعل الأخلاقي أسمى من الفعل القانوني: فالإنسان الأمين الذي لا يسرق لأن القانون يطاله لا يطيع التخلُّق أو الأخلاق بل يطيع دافعاً هو الخوف من عقاب القانون. الأصح أن يقول المرء يستحيل عليّ وعلى الشرفاء أن يسرقوا.

5- قيمة الفعل الأخلاقي في النية: حينما يصدر الفعل عن الواجب فإن قيمته الخلقية لا تتوقف على النتائج التي أفضى إليها الفعل بل عن المبدأ الذي يستوجبه الفاعل في أدائه الواجب. إن قيمة الفعل الأخلاقي تكمن في مبدأ الإرادة أو النية بصرف النظر عما حققه فعلاً.

6- الزام القانون الأخلاقي وحتمية القانون الطبيعي: إذا سقط حجر فإنه يسقط حتماً حسب قانون سقوط الأجسام أما إذا دُفع إنسان للسقوط في هوة اللأخلاقية، فإنه يستجيب باستجابات حرة مختلفة. فمن الناس من يستيقظ ضميره في اللحظة الحاسمة قبل السقوط، ومنهم من يستيقظ بعد السقوط ومنهم من لا يستيقظ

(1) يوجد تطابق عجيب بين مفهومي الإرادة الطيبة عند (كانْت) والنية الطيبة في أخلاق الإسلام. وهناك من يرى تطابقاً بين آراء ابن حزم في الأخلاق وآراء كانت. والأمر يحتاج إلى تحقيق رغم أنه واضح. فابن حزم سبق كانت وعُرف في الأندلس.

البتة..! وهكذا نرى أن الذين يلتزمون بالأخلاق يمثلون انتصار ارادتهم على الطبيعة خلافاً للأشياء المادية التي تؤكد حتمية انصياعها لقوانين الطبيعة.

7- الواجب آمر مطلق يرى كنت أن الواجب آمر غير شرطي، فهذا مبدأ عنده ويستخرج من هذا المبدأ قواعد ثلاثة: اطلق عليها اسم قواعد الأوامر المطلقة:

1- **قاعدة التعميم:** «اعمل دائماً بحيث يكون في استطاعتك أن تجعل من فعلك قانوناً كلياً عاماً» وتقتضي هذه القاعدة أن يعمل المرء وكأنه يشرّع للبشرية.

2- **قاعدة الغائية:** «اعمل دائماً بحيث تعتبر الإنسانية في شخصك، وفي شخصيات الآخرين بوصفها غاية لا وسيلة»[1].

3- **قاعدة الحرية:** «اعمل بحيث تكون ارادتك ـ بوصفك كائناً عاقلاً ـ هي الإرادة المشرعة الكلية». وهذا يعني أن مصدر الإلزام سلطة باطنية تجعل من الإرادة الحرة مصدراً للأخلاق.

**المُسلَّمات الكنتية:**

لقد أكد كنت في كتابه (نقد العقل العملي) وبالاستناد إلى فكرة الواجب المطلق، أكّد أن الحياة الأخلاقية تستوجب التسليم بمسلمات يعجز العقل النظري المحض عن ادراكها، وهذه المُسلمات هي: حرية الإنسان ـ خلود الروح ـ وجود الله.

**حرية الإنسان:** تستوجب فكرةُ الواجب المطلق حرية الإنسان فلا معنى للواجب إلا بالنسبة لعقل حر.

**خلود الروح:** إذا التزم الإنسان بالأخلاق القائمة على الواجب، يكون قد اتجه نحو تحقيق طبيعته فكان فاضلاً، فهل تكتفي الفضيلة بذاتها دون أن تنال ما تستحقه؟.. أليس أقل ما تستحقه أن تنال

(1) ولهذه القاعدة نظير في أخلاق الإسلام حيث أمر المسلم بأن يعامل الناس كما يحب أن يعاملوه.

السعادة؟ إننا كثيراً ما نرى حولنا أناساً فاضلين لكنهم يعانون الأمرَّين في هذه الحياة!.. وفي مقابل هؤلاء نرى الكثيرين من الأشرار ينعمون بأنواع وأفانين من ضروب السعادة!! أو اللذات على الأقل. نعم إن السعادة في الدنيا ليست غايةً للفضيلة في نظر كنت ولكنها ستكون شيئاً عقيماً ولا معنى له إذا كانت تكافأ بالألم. إذن فليس هناك إلا مخرج واحد من هذا التناقض الأليم ألا وهو وجود يوم آخر، يوم تلتقي فيه السعادة مع الفضيلة فيكون الفاضلون سعداء حقاً ويكون السعداء فاضلين بما قدمت أيديهم[1]. وهذا يعني أنه لا بد من يوم آخر تقتضيه الأخلاق وتسلّم بوجوده، أي أن الروح خالدة.

**وجود اللّه:** إن التسليم بحرية الإنسان في اختيار مصيره إذا اقتضى اليوم الآخر، فكانت الروح خالدة، كان ذلك يقتضي وجود اللّه بالضرورة، فاللّه هو الضامن لحرية الإنسان ولعودته إلى الحياة في يوم الحساب.

إن الأخلاق التي ارتآها العقل بحريته تنهض على النظام الذي أراده اللّه، هذا العقل ليس إلا قبساً من نور اللّه. واللّه هو الأول والآخِر. أرأيت أيها القارئ أن في «كنت» الشيء الكثير مما تقرأ عند ابن حزم المسلم العالِم.

**أخلاق القوة «نيتشه»:**

على الرغم مما ابتلي به نيتشه من عناء شديد وعنت بسبب مرضه واعتلال صحته، فإنه قد اتخذ مبدأ فلسفياً يقوم على احترام القوة واحتقار الضعف، ولربما يكون اختياره لهذا المبدأ راجعاً إلى الروح الجرمانية الغنية التي أحاطت به منذ ولادته وظلت معه حتى وفاته عام

---

(1) قال تعالى: {**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**} [الجاثية: 21]. {**وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**} [الجاثية: 22].

1900، كما يرجع إلى اعجابه وتأثيره الكبير بالفيلسوف (شوبنهور) من جهة وبنظرية التطور عند (دارون) و(سبنسر) من جهة ثانية.

انطلق نيتشه من مبدأ النشوء والارتقاء (حجر الزاوية في فلسفة التطور)، ومضى يدعي أن تنازع البقاء الذي يسود عالم الحيوان ينظم ويسيطر على عالم الأخلاق لدى الإنسان.

اعتبر (نيتشه) أن الخير في القوة لا في الضعف، فمن الواجب أن تأخذ القوة مداها في تكوين الفرد والمجتمع. لقد اتفق الضعفاء وجمعوا صفوفهم كما تتجمع الطفيليات وذلك بهدف التغلب على الأقوياء وتقليم أظافرهم.

كتب (نيتشه) كتابه «هكذا تكلم زرادشت» ويقول فيه: «لقد تقرحت جفوني من شدة البكاء الذي استولى عليّ من شدة فرحي حين اكتشفت فكرة الإنسان الأعلى (السوبرمان) الإنسان الذي يملك فضائل الحياة كلها، الإنسان الذي يستقطب القوة ويحلق ببصره وبصيرته في السماء مثلما يفعل النسر القوي يفرد جناحيه ويتطلع أبداً صوب الشمس...».

إن الخير الإنساني هو القوة والقوة وحدها، ولندع صغيرات الأطفال يغرّدن ويغنين أن الخير في اللطف والرقة والجمال.

ولا يوافق نيتشه رجال الدين المسيحي حين يقولون أن الخير والشر يرجعان إلى النصوص الدينية التي بين أيديهم فهم كما يرى أبعد الناس عن فهم تلك النصوص أو تحقيق روحها، ولا يقبل نيتشه أن يكون الضمير أو العقل العملي العام (كما كان كنت يقول) المرجع في الأخلاق، بل يؤكد أن المرجع الحقيقي يتمثل في الطبيعة الإنسانية الخاصة وما تزخر به من غرائز. وهكذا يكون لكل ملة فلسفية تقديرها الخاص لأعمال الخير والشر.

يجب أن تدرك أن ما هو عدل لهذا الإنسان قد لا يكون عدلاً لذلك الإنسان الآخر.

إن المطالبة بأخلاق واحدة للجميع هو خسارة محققة للرجل القوي الممتاز. وكما يوجد فرق بين إنسان وإنسان آخر يجب أن تكون هناك فروق بين أخلاق وأخلاق.

**أخلاق السادة:**

تتمشى مع طبيعة تكوين السادة وهي من حقها ومن شأنها أن تعلو وتتجاوز أخلاق العبيد. يرى نيتشه أن أخلاق السادة (التي انطلقت مع الفاتحين الرومان) تمجد الفتح والإستيلاء، وتحتقر الرحمة والتسامح والضعف ويرى أن أخلاق العبيد هي أخلاق الخضوع والرضوخ والملق والنفاق وسائر ما يمت إلى الضعف بسبب من تسامح وحلم وإيثار.

إن العبيد الضعفاء وهم يمثلون الكيان المنحط في الإنسانية. يقلبون في نظر نيتشه الحقائق فيسمون الأشياء بغير أسمائها تراهم يسمّون العجز حِلماً، والخور والبعد عن الإنتقام عفواً، كما يسمّون خفض الجناح وضعف القلب تواضعاً. وهكذا يقلبون الأوضاع الطبيعية وهي القائمة على القوة من أجل أن يحموا أنفسهم وأهليهم، ويفتّوا في عضد السادة في الوقت الذي يحتاج فيه نجاح المجتمع إلى السادة لا إلى العبيد. فأنظر وتأمل وقارن.

**النظرية البراغماتية:**

أصل كلمة براغماتيسم يوناني وهي مأخوذة من Pragma التي تعني العمل. وبذلك يكون معنى براغماتيسم مذهب العمل، وعُرف في العربية بإسم مذهب الذرائع.

وُلد مذهب العمل في أمريكا مع كل من «تشارلز بيرز» و«وليم جيمس» و«جون ديوي».

بدأ «بيرز» بملاحظة أن الفكرة ـ أي فكرة ـ لا تحمل حقيقة في ذاتها، وإنما هي مشروع للعمل، إنها خطة للتأثير في البيئة، فرنين الأجراس في المحطة لاتعني القطار وحسب، وإنما تحرُكُ القطار هو الدليل على رنين الأجراس.

ويزيد على ذلك «ديوي» فيتناول صميم المذاهب العقلية بالنقد فيقول: «ليس العقل أداة للمعرفة، بل هو لخدمة الحياة ونموها. إنه أداة يستخدمها الإنسان في المحافظة على الحياة من جهة وفي تنمية هذه الحياة من جهة ثانية. ثم انتقل مذهب البراغماتيسم إلى انكلترا وفرنسا فأبان «شلر» الانكليزي أن للحقيقة مقياساً خاصاً يتلخص في خدمة الجنس البشري، فكل ما من شأنه أن يخدم الإنسانية ويأخذ بيدها إلى الحياة المثلى إنما هو حق، فالجنة حق لأنها تقدم خدمات ومنافع أخلاقية للبشر. (وليت الغربيين يؤمنون حقاً بهذا).

**والخلاصة:** فإن في فلسفة البراغماتيسم محاولة لفهم الحقيقة لا في حد ذاتها، بل من حيث نتائجها أو تطبيقاتها العملية وهي تنزل بالفلسفة من سماء التجريد والمجردات، لتجعلها على صلة بصميم العمل والحياة.

وهكذا أصبح الحق هو ما ينفع ويفيد، وأصبحت صحة الفكرة رهينة بفائدتها وصلاحيتها.

**ومن الوجهة الأخلاقية:** يرى البراغماتيون أن المنفعة مقياس الخير والشر. إنهم يتفقون مع السفسطائيين في رد القيم إلى الإنسان ولكنهم يخالفونهم في اعتبار الإنسان عامة وليس الإنسان الفرد، هو معيار القيم الأخلاقية ثم يصنفون المنافع فيرون أن منها العليا السامية والدنيا الوضيعة.

هذا وإن البراغماتيين يخالفون المذهب العقلي التقليدي الذي يفتش عن خير الإنسان المجرد أو المثل الأعلى المجرد عن الزمان والمكان ويرون أن الخير هو ما ينفع في موقفٍ ما من المواقف الإنسانية التي تحددها الظروف. وهذه المواقف لا يحددها العقل بطريقة مسبقة وقبل التجربة بل تتغير تبعاً للظروف والأحوال.

وتطبيقاً لهذا يرى البراغماتيون أن خير الجماعة ما يقدِّم خدمة للجماعة ولا شيء يفصل خير الأفراد عن خير الجماعة لأن من مصلحة الفرد أن يفتش عما ينفع مصالح المجموع.

**نقد:** أشد ما يؤخذ على المذهب البراغماتي مبالغته في الاهتمام بالنتائج وتعليق كل قيمة بنفعها. وقد يقتنع المرء لأول وهلة من صحة هذا المذهب، ولكنه يشعر بالتقزز حين يرى المجتمع الأمريكي قد راح يتحلل في كل النواحي، في البيت الذي أخذ الأبناء ينفصلون عن آبائهم، وفي الجوار الذي لا يُعنى بالجار ولا يهتم بما ينفع جاره، وبالدولة التي تحرص على ما يدعم نظامها المتردد والمتردي بين الجمهوريين والديمقراطيين. وهناك من يرى أن البراغماتية ليست إلا صورة جديدة من صور المذهب السفسطائي صيغت بقوالب جديدة.

% % %

# الفصل السابع

## التوجهات العمليّة

وفيها بحثان (الأخلاق الإسلامية سبيلنا إلى المطلق)، (دعم الوسائل الإسلامية).

**أولاً ـ الأخلاقية الإسلامية:**

هي آخر حلقة في سلسلة أخلاق الأديان السماوية وأكملها، والمسلمون يعتقدون والنصوص الإسلامية تؤكد أن نبي الله محمداً (صلوات الله عليه) هو خاتم النبيين وآخرهم[1]، مع أنه لا فرق بين أحد من الأنبياء.

لقد انتهت المهمة التي كانت تقتضي ظهور الأنبياء منذ أن أمكن للبشرية أن تؤوب إلى «الرشد» بعقلها، لقد استقرت النصوص الإلهية التي بينتها آيات الهدى في القرآن، ووضعت بين أيدي البشر وأنظارهم مكتوبة بوضوح ومصونة عن الضياع محفوظة في السطور والصدور بسورها وجملها وكلماتها، بل وحروفها، دون أن ينالها أدنى تغيير وتحريف وهي تدعو الإنسان حيثما كان إلى اتباع الهدى (الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) والإفادة من التعقل والقناعة التامة من غير إكراه {**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**} [البقرة: 256].

وبدهي أن تتفق النظرة الإسلامية إلى الأخلاق مع أصول[2] نظرات الوحي في الديانات السماوية كلها، وتنهض على أسس تكملها وتترقى معها.

---

(1) {**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**} [الأحزاب: 40].

(2) ويأسف الإنسان لأن كثيراً من هذه الأصول قد نالها عند أهل الكتاب البلى والتحريف بسبب تقادم العهود وغياب النصوص، وهذا بحث تاريخي قائم بذاته ويحتاج إلى تحقيق. المؤلف.

**دليل أهم هذه الأسس الأمور الآتية:**

1- لا يتمكن الإنسان إذا ترك لوحده، من تقدير «ما يجب أن يكون» عليه سلوك البشر، إن الإنسان قادر عن طريق الحواس ومعطيات الحس على معرفة ظاهر الوجود (أو ما هو كائن) وهذا ما يصنعه العلم.

2- ولو ترك الناس ليشرعوا بأنفسهم قواعد الحياة العامة لانساق كل فرد لاتباع هواه[1] وما يراه لمصلحته في حدود معرفته ولو على حساب غيره، وكذلك فعلت وتفعل كل فئة بشرية بغيرها من الفئات الأخرى خلال أزمنة طويلة يمكننا أن نسميها أزمة ما قبل الرشد، ففي هذه الأزمة كان إيقاع الأذى والظلم، يمارسه الأقوياء على الضعفاء، عنوة وقسراً أمام الجميع والمعتقد المظنون أن هذه الأزمنة قد ولى عهدها وتوارى في حين أن الوقائع تؤكد أن الأمم الأقوى ما تزال منساقة باهوائها ومصالحها (أو ما تراه مصالحها) تجاه الأمم الأضعف، وفي داخل الأمة الواحدة أقيمت القوانين (الوضعية) تستهدف تقييد الظلم وضبطه، فبامكانها تقييد الظلم الغبي[2]، أما الظلم الذكي فيما يزال في نجوة من عقوبة القانون ما دام (منطق العواطف) قابلاً لأن يُستخدم بمهارة وما دامت شهوة التحكم أقوى وأمضى من تصورات العقل وتصديقاته وتدعم نفسها بالأوراق النقدية وما إليها وهذا ظلم أبرع من غيره تستخدمه العقول ذاتها وتسخّر من أجله الأدمغة وتدَّبج من أجله البحوث وتوضع له الكتب، والكثير من المذاهب مثل العولمة، وإذا أضفنا إلى هذا كله ما يلاحظه علماء النفس من أن العقل أقل

---

(1) قال تعالى: {**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**} [الجاثية: 23].

(2) على غرار ظلم رجال الدين والأشراف قديماً في أوروبا وظلم الاستعماريين، ومن بعدهم رجال العولمة.

الأدوات تأثيراً واستعمالاً في حياة البشر، وأنه إذا استُدعي لإبداء شهادته كان قميئاً هزيلاً أمام القوى الإنسانية الأخرى[1].

إذا أخذنا كل ذلك بعين الاعتبار أدركنا لماذا تظل هناك حاجة إلى الأديان، وإلى الإسلام بوجه خاص في معالجة شؤون الأخلاق والحياة.

3- إن عناية الله تعالى بالبشر ورحمته أكبر من أن تدعهم ضحايا الزيغ والضلالة دون إرشاد، ولهذا أرسل الله رسله الذين اصطفاهم ليبلغوا الناس ما لهم وما عليهم، ويدلوهم على صوغ الحياة الكريمة والأخلاق الفاضلة.

4- وصحيح أن هذه الحياة الدنيا هي مرحلة عابرة وظل زائل، إلا أنها تحمل في ذاتها كل الإمكانات كي تكون حياة طيبة كريمة، إنها قصيرة في مداها ولكنها يمكن أن تكون مليئة وحافلة[2].

وعلى الرغم من أن الحياة ليست بدار قرار لكن الإنسان كان وما يزال يتوق إلى الاستقرار ويسعى إلى الطمأنينة مع ما يلقى في حياته من عنت وقلق واضطراب، أليس هذا دالاً على أن في أعماق البشر وتركيبهم النفسي شيئاً من التطلع إلى الإله المطلق، وتشوقاً ونزوعاً إلى الخلود؟

وهكذا نرى أن داعي الإيمان هو الداعي إلى الكرامة والنقاء في هذه الحياة وفي كل حياة.

**ثانياً: دعم الوسائل الإسلامية لأخلاق المسلمين:**

من الواجب أن توضع برامج عملية منسقة تُناقش خطواتها وتُحدد أزمنتها تبعاً للأولويات.

ونقدم فيما يأتي بعض المقترحات التي يمكن أن تناقش وتتحول إلى برامج.

---

(1) ينبوع الأخلاق والدين (برغسون) فصل 3 و5.

(2) {**تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً**} [الأحزاب: 44].

أهم هذه المقترحات الأمور الآتية:

- ترجمة المعاني والمفاهيم الواردة في التراث إلى اللغة الدارجة، (العبادة ونتائجها الأخلاقية) (الصلاة والصيام والدعاء) و(تلاوة القرآن الكريم) و(أحاديث الرسول المكرم).
- الإفادة من العلوم الإسلامية المختلفة في دعم التربية (تربية المربين، تربية الأسرة، تربية المرأة والطفل).
- تعزيز الاتجاه الإسلامي في الاهتمام بـ( بر الوالدين) (البر بالجار) (احترام المؤسسات الاجتماعية) و(الملكية العامة).
- تصحيح معنى العمل في الممارسة اليومية.

**1- ترجمة المعاني والمفاهيم الواردة في التراث:** وبتعبير آخر علينا أن نستخدم علماً مثل علم النفس والاجتماع والحضارة في تحليل المعاني الإسلامية وأبرزها (النفس المسلمة)، (المشاعر التعبدية)، (فعاليات الإنسان الروحية) (أنشطة العبادة... الخ) وإذا كانت الأفكار الإسلامية هامة فإن خدمتها والحدب عليها وجلاءها كل هذا يجب أن يُوظف في تكوين الذات المسلمة. أعني الذات المفكرة للمسلم. إن القرآن الكريم محفوظ، ويهمنا أن تُحفظ نفوسنا ومشاعرنا في إطاره.

وأخلاق القرآن إذا شئنا أن تصل إلى صغارنا فلا بد أن تتجسد فينا قبلاً، إن صغارنا يتأثرون بسلوكنا أكثر مما يتأثرون بما يسمعون منا أو يقرؤون، ويجب أن تمر فترة قد تطول حتى يحسنوا الاستجابة مما يسمعون أو يقرؤون. ثم إن الأخلاق تُعلم بالمناسبات (والمناسبات العاطفية بوجهٍ خاص) لا بالمواعظ (وإن كانت المواعظ المحكمة الدقة ذات تأثير حقيقي ولا يستهان بها).

**2- العبادة وآثارها الأخلاقية:** لعلها من الوسائل الكبرى الآيلة إلى تكوين الذات المدركة للمسلم. فهي لا تساعد على تكوين الأخلاق السلوكية وحسب بل وعلى تكوين المبادئ والقناعات الداخلية (أو تهذيب المشاعر الباطنة)، والعبادة تؤتي أُكُلها عندما يدركها المتعبد ويفهم ما يصنعه فيها، كما يفهم ما ترمي إليه ثم يلتزم به.

لا بد أن يمارس الطفل العبادة حتى يألفها أولاً ثم يلتزم بها كعادة ثانياً ثم يتذوقها كأمر محبب حلو وعذب.

(كان والدنا رحمه الله إذا مررنا معه في الطريق ونحن أطفال يضع في يدنا بعض الليرات كي نعطيها للسائلين فنتعود بها العطاء لمن يحتاج، وكنا نتمتع بهذا، ونذكره إذا نسي أن يعطينا، حتى أصبح العطاء شيئاً محبباً لنا في ذاته مع الأيام).

ولما كبرنا أدركنا المتعة بل المتع التي تتأتى لنا حين نمد يدنا للمساعدة فنحس بأنعُم الله علينا.

(والذي يقرأ الآية المتعلقة بالعطاء يدرك الأهمية النفسية لهذه الفعالية الحلوة. قال تعالى في سورة الليل: {**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**} [الليل:5].

ولنلاحظ هنا أن المولى تعالى قدّم العطاء على التقوى، وقد يستدل من ذلك أن العطاء يفتح النفس بطريق الممارسة وهو جزء من التقوى ولكنه جزء عملي. والنتيجة حصول اليُسر (أو التيسير) في الحياة. وبالمقابل فإن البخل يؤدي إلى العسر وليس هذا بمستغرب في قانون الأسباب والمسببات.

**الصلاة:** صلة بين العبد وربه، وهي أيضاً صلة بين العبد وإخوته المسلمين، وأخص خصائصها الحمد.

1- إنها صلة بين العبد وربه وتؤدي هذه الصلة إلى صقل النفس ومنحها صفاء وبصيرة، إنها تجسّد نظرتنا إلى إمكاناتنا الروحية ومشاعر أنفسنا في إقبالها على الله وهي بمقدار ما تصفي أعمالنا، تقوي هممنا، والصلاة تصلنا بالله بلا وسيط وهذا هو المعنى الرائع لها.

2- إنها تصل بين عواطفنا القلقة وتربطها بسر الحياة الروحية ومصدرها. فهي ربانية لارهبانية.

3- والخشوع فيها شرط لصحتها وهو ضبط الحركات والجوارح وفهم الكلمات.

4- ويُنصح المرء دفعاً للشرود أن يُعنى بفهم المعاني المقبلة في التلاوة، فالتفكير في المستقبل ملائم لطبيعة النفس ويؤدي إلى ربط كل فكرة بما يليها بوصفها حلقات في سلسلة متواصلة.

5- وأما صلة المرء بإخوته فتساعده كي يحبهم في الله، سيّما أنه يجتمع بهم ويأنس برؤيتهم ويتأسى بأحاسنهم ويؤثر فيهم ويتأثر ولهذا كانت صلاة الجماعة أفضل من الصلاة المنفردة. وينصح بعض المؤمنين إخوتهم بأن يتصوروا أن الآخرين قد يفضلونهم عند الله فيسعى لينتفع من نفسياتهم ويتواضع أكثر فأكثر معهم.

6- أما مزية الحمد فهي الأثيرة العظيمة أكثر في الصلاة. إن عالمنا الأرضي وبخاصة عالمنا المعاصر لايبعدنا فقط عن الله، وإنما يبعدنا عن الشعور بأهمية الحياة. والحمد جزء هام من الصلاة يبدأ به المسلم وينتهي بالحمد والتمجيد لله في صلاته، إن عالمنا الأرضي يخلو شيئاً فشيئاً من الرضى، والمقصود بالرضى ليس القعود عن العمل والقناعة بالضئيل، وإنما المقصود به الفرح الهانئ الداخلي الذي يشعرنا بدفء النعمة وعظمتها[1]، إن النعم تغمر الدنيا وتزداد وتنمو لدى الشعوب والأفراد، فتملأ العالم ولكن المؤسف أن زيادة الثروات والترف لا يُعيننا على تقدير النعم، وقد يكون صحيحاً هنا أن نذكر أن لب الصلاة أو روحها، ينمو ويزدهر من إدراك الشعور بإنعام الله وأفضاله علينا.

**نفسية النعمة:**

1- المُنعم هو الله، فلنشكره أن خصنا بها مهما كانت.

---

(1) جاء في بعض أحاديث الرسول الأعظم قوله «**إن الله عز وجل قد جعل الفرح والروح** (أي الراحة) **في الرضا واليقين وجعل الغم والحزن في السخط والشك**».

2- مَن يشكر يتنعم أكثر من مرة، مرةً بالشيء المُنعَم ومرة بتذكر النعمة نفسها، ومرة بأنه شكر وما نكر وبأنه أطاع وما كفر.
3- من يقدّر الشكر على القليل يمكنه أن يقدر الشكر على الكثير.
4- من يقدر شكر الناس يمكن أن يقدر ويتقوى لشكر الله. والمهم روحية الشكر أو الأثر النفسي الناتج. والعكس صحيح فشكرنا الله يجب أن يتحول إلى إحترام الناس وتقدير جهودهم البنّاءة.
5- لايكفي أن نتلفظ بألفاظ الشكر أو نفهم معناه بل لابد أن يُوظف الشكر في متابعة العمل أو السعي وتنمية الدوافع الفعّالة وخدمة من أحسن إلينا وأعاننا وحتى من لم يحسن أو من لا نعرف.
6- والنتيجة من كل ذلك أن يغدو المرء عبداً شكوراً (وفي ديار الشام يستعمل معنى الوجه الشكور بأنه حسن وممتلئ).
7- وبين يدي الآن كتاب في أمراض القلب لـ(دين أورنيش) وآخر لـ(بيرني سيغل)، فيهما تنويه عظيم لأهمية الراحة النفسية التي يخلفها الشكر والطمأنينة وأثرهما على الشرايين التاجية المغذية للقلب وفي دعم المناعة ضد الأمراض.

**الدعاء:**

في الدعاء تفريغ للنفس من التوترات وشعور بأن قوة الخالق التي نظَّمت وتنظِّم بإستمرار إحداثيات الحياة تُسخر لنا، والمؤمن الذي يقرأ {**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**} [البقرة: 186] يُدعِّم مشاعره بل ويبث الطمأنينة في نفسه.

إن نفسية الإنسان المعاصر مليئة ومفعمة بالشدة stress فتتعاظم إحتمالات الإنحراف والزيغ والمرض العضوي الذي يتناول القلب وضغط الدم وبقية أمراض الحضارة وفي كل دعاء أمران إثنان:
1- شعور بضعفنا وإعتراف بحاجتنا إلى الله، وهكذا ندعو ربنا خوفاً وطمعاً.
2- طمأنينة إلى عظمة خالقنا وقدراته.

**الصوم:**

وفيه إعادة يومية للتوازن وإنقاذ لنا من الآلية، وكثيرون منا من لا يشعرون بالأهمية الصحية والنفسية لشهر الصوم إلا بإنقضائه، ولعل هذا هو مغزى العيد، ونضيف إلى ذلك أنه إعادة النظر إلى قيم الأشياء. الطعام طعامك وهو لك ولكنك لا تمسُّه والزوجة هي الحلال ولكنها لا تُمس في الصيام. إنها تجربة لا نظير لها، تجربة صنع الحرية. «**الصائم المتطوع أمير نفسه، إن شاء أكمل صيامه وإن شاء أفطر**» (حديث شريف). وفي هذه التجربة يتم شئ غريب وهو إشتهاء ما نملك. قال أحدهم: إني أرى زوجتي تتألق في كل يوم أصوم. وإذا كان معروفاً أن الصوم يشعرنا بعضّة الجوع، فإنه في الوقت نفسه يساعدنا على أن نشعر بحلاوة الشبع. وهنا يحسن أن نذكّر بضرورة تشجيع الصغار قبل أن يبلغوا العاشرة على ممارسة الصيام وأن يُقدم لهم الإكرام والتشجيع وما إليهما... من هدايا وأُعطيات وذلك ريثما يدركوا الصيام كمعنى.. ويتبلغوا بمعناه العميق.

% % %

# الفصل الثامن

## الأخـلاق المعاصـرة

في تلاوة كتاب الله ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وفيه تحلية للنفس وذكر للرب وموعظة وأجر وولوج في عالم النور ناهيك عن التقوّي بلغة العرب وبيانها وفي هذا يقال الكثير.

وفي تلاوة أحاديث الرسول r نتصل بالرسول عن طريق كلامه، وفيه تباشر قلوبنا المعاني التي رمى إليها، فكأنه يعيش معنا ونعيش معه، والمهم أن تكون الأحاديث وآيات الكتاب معينة لنا من أجل:

**دعم التربية:** وهي تؤتي ثمارها إذا كانت مترفقة ومتدرجة وملائمة لسن الأطفال، والذي يطلع وينمي معه علم النفس التربوي يدرك الطرق والأساليب الأفضل لخدمة الصغار، وفي كثير من الأحيان نغفل نحن عن تربية المربين ونظن أن مجرد كوننا قد كبرنا وصار لنا أولاد فهذا وحده كفيل بأن يجعلنا نربي، ولكننا في الحق إنما نعيد أساليب الذين ربونا تربية مشوهة وممسوخة وما أكثر ما في هذه الأساليب من أخطاء وضلالات. والذي يطالع في شؤون التربية يدرك الأهمية الكبرى لتعاون المربين، وذلك لأن المهم أن يقنع الطفل المرُبى بحكمة الكبار وتوازنهم وتفهمهم. ولهذا ينبغي أن يقلل الكبار من التوجيهات ما استطاعوا وأن يتزودوا من الثقافة النفسية والتربوية وقد صارت بين أيدي الخاصة والعامة.

أما التربية المدرسية فتغدو مفيدة حقاً إذا كانت لا تتناول العقل وحده فقط بل تُعنى بالكشف عن نفسية الطفل ومعرفة قدراته ووجوه الإمتياز عنده ومعرفة ما يسره وما يؤلمه. ومن يدرس بعناية أساليب النبي r في تربية إخوانه وأصدقائه يستمد منها الكثير من أصول التربية وأساليبها.

**تربية المرأة:** وهذا أمر هام يغفله الكثير من المسلمين بكل أسف، ولكن إذا ذكرنا أن المرأة في الدنيا كلها قد خرجت عن الطوق وصار لها شأنها الفعلي أدركنا أن تجاهل هذا الموضوع يصور سذاجة الكثيرين وتقصيرهم. إن هذا كلام إحصائي. ونحن نزعم أنها جُل المجتمع لأنها تُعنى بنفسها وبخدمة النصف الآخر، ورسول الله تعالى في حجة الوداع لم يوص بأحد مثل وصايته بالنساء «إستوصوا بهن خيراً»، والحق أن إمرأة أحسن تكوينها العقلي والروحي (لا نبالغ إذا قلنا إنها ترجح أكثر من عدة رجال) ولا حاجة إلى بيان أن المرأة تسعى نحو الكل أكثر من الرجل وأنها إذا كانت سوية كانت أميل إلى التكيف من الرجل، شريطة أن يكون الرجل رجلاً حقاً معها، فهي تحتقر الضعف ولكنها تحب من تحترمه أو تحترم رجولته. وعنه r نقرأ «**لو كنت مفضلاً أحداً لفضلتُ النساء**».

**صراع الأجيال:** وأشد ما يقع الصراع بين المراهقين وذويهم، وطبيعي أن المعضل في كثير من الأحيان يرجع سببه إلى الكبار وقد يرجع إلى أبنائهم ويأسف المرء إذ يسمع بالشجار والنكد وما إليهما يتم في جو الأسرة بسبب عدم التفاهم مع المراهقين وعلى أية حال فإن ما نسمعه من الصراع بين المراهقين وذويهم يصل إلى الذروة في غير بلاد الإسلام. ذلك أن من نعم الله علينا نحن المسلمين أن أولادنا حين يصلون إلى المراهقة يدخلون في عالم التكليف، والذي يدرك طبائع الأمور ويتعامل معها بإتقان يدرك أن تربية المراهقين عندنا تعني إشعارهم بالنضج والأهمية، كما تعني أخذ رأيهم في كثير من الأمور وندبهم إلى خدمات تتكافأ ومستواهم في الأهمية والإعتبار.

ولعل أعظم درس يمكن الإفادة منه في هذا المجال أن نذكر رسول الله r كيف جعل أسامة بن زيد ابن السابعة عشرة قائداً في جيش كان فيه كبار مثل أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) قد قارب أحدهم الستين أو زاد عليها.

**معنى العمل:**

ويأسى المسلم لأن الكثيرين يذهبون إلى أن العمل هو ما نبذله من أجل تحصيل المال. فهذا عين الخطأ. إن الإنسان يعمل لأنه لابد أن يعمل، وبالعمل نكتسب أنفسنا من الضياع ونكتسب معنى الحياة الحلوة ونصوغ مشاعرنا عن طريق العطاء والهبة قالوا «إذا شكا لك صاحبك من كثرة العمل فعاقبه بعدة أيام من البطالة» وإذا وازنا بين معارفنا استطعنا أن نتبين قيمهم من أسلوب نظرتهم إلى العمل. والمهم ليس أن نعمل وإنما أن نتقن العمل. ولنذكر هنا الخليفة عمر رضي الله عنه حيث قال: يعجبني الرجل فأسال عن عمله فإذا قيل لاعمل له فإنه يسقط من عيني.

**عالمنا عام الآلة:**

إن من أبرز خصائص عصرنا أنه عصر الآلة، وقد مرت الآلة في تأثيرها على الإنسان بمراحل كثيرة منذ أن بدأت أداة طيّعة في يده حتى استعبدته نهائياً.

1- بدأت عملها فكانت مجرد أداة في الإنتاج، ضاعفت من كميات الإنتاج، وأشاعت الرفاه، ويسرت الحصول على الكثير من صور المتعة، فقربت الأبعاد، وألغت المسافات، ومكنت الإنسان أن يغوص في أعماق البحار، ويصعد إلى أجواز الفضاء، وأخذت تصنع العجائب.

2- أخذت الآلة تبدل الكثير من المفاهيم السائدة:

أ - جعلت الكم يطغى على الكيف.

ب - جعلت السرعة والكتلة والسهولة والرفاه أهم أغراض الحياة.

جـ - حولت التأمل من شكله الشاقولي العميق إلى صورته الأفقية فجعلت الشمول فوق التضمن.

د - وجعلت القوة بديلاً عن الجدارة.

هـ ـ صيرت السمعة بديلة عن الأخلاق، وقواعد التعامل بديلة عن دوافع الضمير.

و ـ دفعت الإنسان ليحيا خارج نفسه وانتزعته من ذاته.

ز ـ وأحكمت الفصل بين العلم والحكمة (بين الوسائل والغايات).

3ـ أخذت الآلة تنقضُّ على حياة الإنسان نفسه.

تحولت حياة الأمم إلى بحر واسع من الآلات، تضاءلت قيمة الإنسان إلى مرتبة تشابه قطع الغيار للآلة، حتى أن بعض الآلات الدقيقة الصنع كالعقل الإلكتروني بدأت تظهر تفوقها على الإنسان... من بعض الوجوه.

في عصر الآلة أصبح الإنسان مفتوناً بالآلة...

بدأ يسيّرها فإذا بها تنقض عليه.. لتسيّر حياته كلها...

وتولد انفصام واسع بين الصناعة والثقافة.

ومعظم رجال الفكر والثقافة يحسّون بالخطر المتزايد، لكن أحداً منهم لايملك أن يقاوم طغيان الآلة وخطرها المتفاقم.

**داء يجب تشخيصه:**

أن الخطر الكبير، والداء الذي يحيق بإنسانية الإنسان يكمن في الناحية الآتية: ليس الخطر ناجماً عن أن عدداً كبيراً من الآلات أخذ يفكر تفكير البشر، بل الخطر ناجم عن أن عدداً كبيراً من البشر أخذ يفكر تفكير الآلات.

وفي عامل من الضياع والألينة Aliénation (البعد عن الذات) ظهرت اتجاهات عالمية كثيرة أظهرها حركتان:

ـ حركة تحويل البشر إلى آلات.

- وحركة تحويل الإنسان إلى حيوان[1].

**نظرة تاريخية وحضارية:**

قامت النهضة الأوربية في نظر غارودي[2] على أسس كثيرة أهمها ثلاث:

1- التراث اليوناني الروماني (الوثني).

2- العقلية الكتابية للديانتين الموسوية والمسيحية.

3- التوحيد الإسلامي.

لكن الأوربيين يذكرون الأساسين الأول والثاني وينكرون الثالث إما لعداوتهم التقليدية للمسلمين وإما لأن المسلمين كانوا قد طُردوا من الأندلس وجنوب فرنسا وإيطاليا، بعد أن تمزقوا ومضوا يتقاتلون ويتنازعون، وهكذا أفاد الغربيون من المسلمين ومنهجهم التجريبي في العلم. ولقد سلب الغربيون طريقة الاستقراء التجريبي وعزَوْها إلى أنفسهم (رغم أن جورج بيكون كان يقول أن العرب المسلمين أساتذتي)، والعرب ليسوا أذكى من اليونانيين ولكن المعرفة عند الأخيرين كانت عقلانية محضة، فصنعوا الفلسفة والأسطورة ولم يصنعوا العلم التجريبي. لأن العلم التجريبي يحتاج إلى الإيمان بأهمية الحواس (التي لا يبالي بها اليونان) وقد تدرب العرب على الاهتمام بالحواس بسبب أن القرآن الكريم قد دعاهم وخاطبهم قائلاً {**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤولاً**} [الإسراء: 36] لقد شاهدنا هذا قبلاً وشاهدنا أن عظمة الفكر الإسلامي تقوم على «تحويل العقل من الدوران حول نفسه إلى الدوران حول العالم».

---

(1) إذا تحول الإنسان إلى آلة: تضاءلت حاجاته. فالآلة لا تحتاج إلا إلى طاقة محركة وشيء من الصيانة. وإذا تحول الإنسان إلى حيوان كالثور مثلاً، فإن الثور لا يحتاج إلا إلى عشب وماء وبقرة (حسناء أو غير حسناء).

(2) غارودي: فيلسوف فرنسي دخل في الإسلام: مدير ومؤسس المعهد الدولي لحوار الحضارات.

**وفي الأخلاق:** نجد أن اليونانيين كانوا وثنيين في أخلاقهم، وكانت آلهتهم (وهي أقرب إلى أن تكون من الشياطين) غارقة في ملذاتها وصراعاتها من أجل الملذات، أما الرومان فكانوا قد اتخذوا شعاراً لهم: الحياة خبز وألعاب. غذاء ومُتَع، طعام ونساء وكانوا يأكلون ويأكلون ثم يتقيؤون ليعودوا إلى موائدهم قريباً ومن جديد، تلك الموائد التي يُعدِها لهم العبيد، لقد كانوا يأكلون بإسراف كي يستمتعوا بتطرف، وكان هؤلاء العبيد أدنى من مرتبة الحيوانات، عليهم واجبات وليس لهم حقوق.

ومع النهضة الأوربية قام الإصلاح الديني الذي مقت الوثنية ورواسبها الكنسية، وتأثر البروتستانت بكثير من تعاليم ابن رشد وبعقيدة التنزيه، كما تأثر الأدب في أوربا بعادات الفروسية التي اكتسبوها من العرب مثل (قصص السيد Le cide) وقصص ألف ليلة وليلة وأناشيد Sagas والتروبادور (الطرب والدور). وقصة روبنسون كروزو أخذوها عن ابن طفيل وعزاها بوكوك إلى نفسه سماها الفيلسوف الذي علم نفسه.

وكان من نتائج النهضة اكتشاف الآلة واستخدامها في الإنتاج فتعاظم شعور الأوربي بذاته. وزاد طغيانه على الشعوب الأخرى وانطلقت المراكب الإسبانية والبرتغالية تسيطر على الموانئ ومراكز الصناعة والتجارة.

وظهرت اتجاهات قوامها النهَم للاستيلاء. وصرّح ماكيافيللي في كتابه الأمير «إن على الإنسان أن يفتش عن الربح بدلاً من الله» وأفهم الأمير أن من الخطر عليه أن يتقيد بالتقوى والأخلاق، وإن كان مفيداً له أن يشتهر بهما. فظهرت نزعات قوامها حسن السمعة التي تقابل طيّب الأخلاق وتعارضها. وتفتحت الغرائز وشرعت تجترئ على العقل وغدت الإثارة والدوافع العاطفية صاحبة الكلمة والسلطان فتحلُ بطيشها محل العقل والفهم.

وأخذ الفرد الإنساني يعيش متنقلاً من إثارة لأخرى في حالة من الضياع، فلا يريد لنفسه هدفاً كبيراً وهاماً في الحياة، واقتنع الناس ألاَّ علاج ينجع إلا بإعادة بناء الإنسان.

**خطوات العلاج لهذه المحنة:**

أ ـ في إعادة بناء الإنسان أظهر البعض (أمثال تولستوي) ألاّ دواء الإ بالقضاء على الآلة والعودة إلى الريف وإلى المجتمع البسيط السابق لولادة الآلة، لكن هذا الدواء خيالي محض ولا سبيل لقبوله لأن الآلة قد احتلت جانباً هاماً وكبيراً من حياة الإنسان ولأن الآلية هي العلة والمرض وليست الآلة ذاتها...

ب ـ قُدمت خطط لعلاج هذه المحنة، محنة الإنسان الحديث الذي اخترع الآلة، فاخترعت له همومه واستعبدته... قُدمت خططٌ بعضها يتِّسم بالهروب والإنسحاب وبعضها الآخر يتميز بالهجوم المعاكس.

1 ـ **الخطط الهروبية التقليدية:** وهي تدعو إلى الفرار من الدنيا، والابتعاد عن المشكلات، كما تقوم على الإستهانة بالإنسان، واحتقار الجسد والمادة، والبعد عن الناس، مع التنكر لقيم المجتمع... وقد ظهرت هذه الخطط في الديانة البوذية منذ القديم، وكذلك عبّرت عنها الاعتقادات المسيحية في أوربا الوسطى... ولم تكن جديدة على إنسان هذه الأيام.

2 ـ **الفردية أو الوجودية المعاصرة:** حيث تعيش شبيبة العالم المتحضر وسط الضياع وتُحس بأن مجتمعها يشرف على الإنهيار، إن أفراد (البيتلز، والهيبز) يُعبِّرون عن كفرهم ليس فقط بالمجتمع المعاصر بل أيضاً بالحياة العقلية الواعية بشكل عام، وهم أنفسهم نتاج هذا المجتمع وبعض عوامل انهياره.

ويلتقي (فرانز كوفكا) مع (مارتين هايدغر) الألماني مع (كامو وكابرييل مارسيل) الفرنسيين على صعيد فكرة واحدة هي أنه:

«ليس للبشرية من مستقبل سعيد»، «وأن الحياة الإنسانية فارغة من كل محتوى»، «وإنها حياة باطلة لأنها محاطة بالموت والعدم».

ويعبر (كامو) بقوة عن بطلان الحياة في معالجته لخرافة (سيزيف)[1].

وهكذا فالوجود في نظر الفلسفة الفردية الوجودية ينّصب على العداء للإنسان، وحسب تعبير (جاسبرز) لا مكان في الوجود لأن ترسو السفينة، وهي ستظل تضطرب وتتخبط، والإنسان المفكر (المؤمن بالوجودية) محاط بجمع كبير من أناس متماثلين لا وجه لهم ولا ملامح، وهو في هذا الجو الغريب وحيد أبداً ومعذب بشكل دائم.

ومن المستحيل الإنسحاب مادياً من المجتمع، فالمجتمع في زعم الوجوديين عدو للشخصية الإنسانية، ومع هذا فمن الممكن مغادرته ذهنياً، إن هذا الرحيل من قبل الفرد إلى عالمه الروحي الخاص به، هو أحد التوجهات الرئيسية للوجودية المعاصرة. وهكذا تنتهي الوجودية إلى الكفر بالمجتمع والتخلي عنه، واستصغار شأنه فتغدو واحدة من الحلول الإنسحابية الهروبية التي عرفت في التاريخ. عبّر عن هذا المعنى سارتر بقوله: الجحيم هم الآخرون.

(1) تقول الاسطورة: انصبت على سيزيف غضبة الآلهة فحكمت عليه بأن يدحرج طوال حياته صخرة ضخمة ويرفعها حتى يصل بها إلى قمة جبل، وإذا بها منذ وصولها تفلت من بين يدي سيزيف عند القمة وتسقط من جديد... فيغدو مطالباً بالحد من هبوطها وبذلك كان جهده باطلاً باستمرار ونوعاً من العبث. صعود يستلزم الجهد وهبوط يستنزف القوى. وهو في نظر كامو رمز لعبث الإنسان وشقائه.

**العلاج الجماعي:**

يقابل العلاج الفردي والإنسحابي المتطرف. علاج جماعي متطرف، الفرد فيه لاقيمة له ولا وجود، إنه تجريد محض، أما الموجود الحقيقي هنا فهو الدولة في المجتمع السوفيتي أو المجتمع الكلي، وفي مقابل تشاؤم الوجوديين المفرط، نجد إفراطاً في التفاؤل عند الجماعيين الماديين، والتفاؤل هنا رهن بوعد أو بجملة وعود بعالم المستقبل (حيث تنّحل التناقضات، وتسود القوى الضعيفة، قوى العمال والفلاحين)، وهكذا يظهر في صميم بنية المجتمع صراع بين قوى غالبة وأخرى مغلوبة، ولا مجال لهذا الصراع أن يهدأ وأن يرفع الحيف ومعالجة الضياع لا يتم إلا بتعميق الصراع.

إنّ كلاً من العلاج الفردي والجماعي يتنكر للآخر ويشترك كلاهما في الإتجاه الإلحادي فلا يؤمن باللّه، ولا يحس أنه ينتمي إلى حياة تحمل معنى كريم أو مثالي، فالحياة خالية من المعنى أصلاً وعند الفريقين معاً لا نجد شيئاًمن المبالاة بالإنسان أو الأخلاق الإنسانية.

## العلاج الإسلامي

ينطلق هذا العلاج من منطلقات أساسية تقوم على تقدير الإنسان وإحترام الوجود لانتمائهما إلى اللّه، خالق الكون والإنسان. وبيان ذلك ما يلي:

1- الإنسان كائن مكرّم ـ كما سبق وأوضحنا ـ وليس مجرد حيوان ناطق، إنه كائن متعالٍ لا بعقله وتصوراته فقط بل بدوافعه، وحاجاته إلى التسامي والصلة بخالق القوى والناس.

2- كرامة الإنسان ليست ذاتية فيه بل هي بفضل من اللّه ورعايته.

3 ـ الإنسان حر وقادر على التحرر ومن هنا فهو مسؤول.

4- وحين يسهو إنسان أو ينسى ربه[1] فيتصرف وكأنه إله يفقد اتزانه وعقله وتأييد مجتمعه من جهة ومن جهة أخرى يتصرف وكأنه مسحوق فيفقد وجوده وكرامته ويقع في اليأس، ويمارس العبودية (أو الكفر الذليل المهان)[2] وهذان الموقفان المتطرفان هما اللذان أوحيا بتسمية هذا الكتاب المتواضع أخلاق الإسلام بين الفطرة والفكرة. قال تعالى: {**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**} [النور: 63].

**المهم** لا تُعرض قضية الأخلاق في الإسلام على بساط المعرفة والفكر على طريقة الأخلاق الفلسفية بمقدار ما تُعرض على بساط العمل أي التحقيق الفعلي في الحياة، وإذا كانت البراغماتية فلسفة عملية فهي ترى الخير فيما ينفع ـ كما رأينا ـ فلا تنجو من دائرة الفكر المنتفع، أما في الإسلام فإننا نجد الإيمان يتلازم دوماً مع العمل الصالح، إذ المهم أن يفعل الإنسان الخير لا مجرد أن يعرفه ويقتنع أنه نافع.

1- أما عمل الخير فليس مجرد أداء شكلي بل لابد أن تتوفر فيه النية الطيبة، أُثر عن النبي r قوله «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى**». وأُثر عنه أيضاً قوله «**إن أول الناس يقضى يوم القيامة رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها. قال فما عملتَ فيها؟.. قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدت. قال كذبت قاتلتَ لأن يقُال جرئ فقد قيل**».

2- وهكذا فإذا أخذنا بالتقسيم التقليدي للأخلاق بين الأخلاق السلبية والأخلاق الإيجابية والأخلاق التقدمية وجدنا أن أخلاق الإسلام تنتمي إلى الإيجابية والتقدمية معاً، فهي لا تكتفي بنهي الإنسان

---

(1) كان فرعون يظن أن له الحق في أن يمنع المصريين من أن تكون لهم آراؤهم، وفي أن يرى رأيه هو بدلاً منهم {**قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**} [غافر: 29]. وكذلك يفعل كل ديكتاتور يجعل نفسه بمنزلة من يفكر بدلاً من الآخرين ويطلب منهم أن يخضعوا لتفكيره وكلامه.

(2) راجع المقدمة في هذا الكتاب.

عن الشر (على طريقة الأخلاق السلبية) وإنما تدعو الإنسان إلى فعل الخير (على طريقة الأخلاق الإيجابية) وفوق هذا هي تدعو إلى سؤال الوجدان فيما يستقبل الإنسان من أمور مستجدة (على طريقة الأخلاق التقدمية) قال رسول الله r : «**إنَّ الحلال بيِّن وإنَّ الحرام بيَّن**». وقال: «**الإثم ما حاك في صدرك وخشيت أن يطّلع عليه الناس**». وقال: «**استفت نفسك ولو أفتاك الناس**».

3- لايدعو الإسلام إلى نبذ الدنيا وطرحها وإحتقارها فالرسول r قال: «**تفرّغوا من هموم الدنيا**» ولم يقل تفرغوا من الدنيا.

4- ثم أن الإسلام لا يحتقر الفطرة أو الطبيعة الإنسانية ولا يهمه أن يقتل الغرائز بل يأخذها برفق في تصعيدها، فغريزة «الجنس» لا يقاتلها على طريقة الرهبانية، ولكنه يحدد القواعد والقوانين التي تعمل على تنقيتها والتسامي بها - وغريزة المقاتلة لا يميتها في الإنسان بل يهذبها {**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ**} [البقرة: 194] {**وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**} [التغابن: 14].

وكذلك غريزة التملك لم يحرم الإسلام التملك، لأنه فطري وغريزي، ولكنه قاوم استغلال المتملكين فقد قال: {**وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**} [البقرة: 275].

إنَّ الربا هو مفتاح التضخم الرأسمالي بكل شروره.

وعلى وجه العموم لا يحاول الإسلام أن يجتث الغرائز من جذورها بل يسعى للإعلاء بها، وهذا ناتج عن مبدأ إسلامي كبير وهو أن الطبيعة «أي الفطرة» خيّرة وطاهرة، فالمولود يولد على الفطرة، ومن يفعل الشر أو يقاوم الخير فإنه يشوب فطرته ويؤذي بها[1].

5- والإسلام لا يحرم الشر لأن الأوامر هكذا أمرت (على غرار الأخلاق اليهودية) بل إنه يجنح في ذلك بطريق الفكر والإقناع، فالخمرة والميسر مثلاً لم يحرمهما الإسلام لمجرد أن تحريماً

(1) هذا جانب الفطرة التي عنيناها في هذا الكتاب.

أمَر، وإنما اعترف القرآن أن لهما منافع ومضار وإثمهما أكبر من نفعهما، وحين يقول الإسلام {**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ**} [المائدة: 3] فالفِكر[1] أو العقل يستطيع أن يعرف سبب التحريم.

6- ومن أجل إحكام الروابط بين الفرد والجماعة جعل الإسلام العبادة تساعد على التوجُه الاجتماعي، فالصلاة التي تصل بين الإنسان وربه، هي في الوقت نفسه تصل بين الإنسان وأخيه الإنسان. والصوم يؤاخي بين الفرد وبقية الأفراد المحرومين في المجتمع، وخطبة الجمعة ميدان تُطرح فيه أمور الجماعة ومشكلاتها، والحج مؤتمر سنوي يجمع ويحلل مشكلات المجتمع الإسلامي الكبرى ويحرك الذهن إليها.

7- ثم إن الإسلام قد استرسل في بحث المواقف الجزئية والحوادث اليومية لفعل الخير، فضلاً عن المبادئ العامة التي قررها، وهذه هي نقطة الخلاف بين الأخلاق الإسلامية والأخلاق الفلسفية ولنضرب على هذا الحديث الشريف الآتي: «**مكارم الأخلاق عشر تكون في الرجل ولا تكون في ابنه وتكون في الابن ولا تكون في الأب وتكون في العبد ولا تكون في سيده، يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة: صدق الحديث وصدق البأس وإعطاء السائل والمكافأة بالصنائع، وحفظ الأمانة وصلة الرحم، والتذمم للجار، والتذمم للصاحب، وقرى الضيف ورأسهن الحياء**».

ففي هذا النص تلتقي الفطرة بالفكرة أجمل لقاء وأجوده وأكثره هناءً
وأمناً وسعادة.

## بعض المراجع من أجل التوسع

(1) وهذا جانب الفكرة التي عنيناها في هذا الكتاب.

القرآن الكريم.
مقدمة ابن خلدون.
المدخل إلى فلسفة القيم: المؤلف.
سيكولوجية أسير حرب: غازونوف ترجمة شطا وسبيعي.
الطاقة الروحية: برغسون ترجمة د. دروبي ود. عبد الله عبد الدايم.
ينبوعا الأخلاق والدين: برغسون ترجمة د. دروبي ود. عبد الله عبد الدايم.
فن التربية: برتراند رسل، ترجمة كرداني وغمراوي.
التربية لعالم حائر: سر غنجستون، ترجمة و. الضبع.
قصة الفلسفة اليونانية، أحمد أمين، زكي نجيب محمود.
قصة الفلسفة الحديثة، أحمد أمين، زكي نجيب محمود.
الإسلام بين الشرق والغرب: علي عزت بيجوفتش.
علموا أولادكم القيم: ريتشارد آير، ترجمة عدنان السبيعي وبشار البيطار.
بين العقل والشرع: للمؤلف.
الحب في الإسلام: للمؤلف.
سنريهم آياتنا: للمؤلف.
من آيات الله في الآفاق والأنفس: للمؤلف.
فطرة الله في خلقه: للمؤلف.
نظريات الإلزام الأخلاقي: للمؤلف.
دراسة المجتمع العربي: للمؤلف مع أحمد القادري.
المدخل إلى فلسفة القيم: للمؤلف.
المتوحد: ابن ماجة.
المنقذ من الضلال: الإمام الغزالي.
إحياء علوم الدين: الإمام الغزالي.
رسائل إخوان الصفا.
آراء أهل المدينة الفاضلة: الفارابي.

أدب الدنيا والدين: أبو الحسن البصري.
أرسطو: عبد الرحمن بدوي.
أفلاطون: عبد الرحمن بدوي.
خريف الفكر اليوناني: عبد الرحمن بدوي.
فن التعليم: فريد أبو حديد.
الأسرة المتصدعة ودورها في جنوح الأحداث: للمؤلف.
الإسلام على مفترق الطرق: محمد أسد.
أصول علم النفس: د. أحمد عزت راجح.
المدخل إلى علم النفس الإسلامي: للمؤلف.
من أسرار الحياة والكون: د. عبد المحسن صالح.
الإيدز يهدد العالم: للمؤلف.
عيون الأنباء في طبقة الأطباء: ابن أبي أصيبعة.
النوم والأرق: أحمد فؤاد الأهواني.
تحفة المودود في أحكام المولود: ابن قيم الجوزية.
المثل الأعلى في الأنبياء: خوجه كمال الدين، ترجمة أحمد الشريف.
الحب والطب والمعجزات: بيرني سيغل، ترجمة المؤلف وبشار البيطار.
سيكولوجية المرأة ومسؤولية الحمل: للمؤلف.
كيف تتغلب على متاعبك النفسية: ترجمة د. محمد الحجار.
قلبك بين الشدة والحمية دين أورنيش، ترجمة للمؤلف مع عزة الخجا.
أسس الصحة النفسية: د. عبد العزيز القوصي.
من أجل أطفالنا: للمؤلف.
الإسلام وأزمة الغرب: جارودي.

**بعض المراجع الأجنبية**

- Cuvilier: Cours de Philosophie.
- Foulkié: Précis de Philosophie.

- L’sprit مجلة .
- Paris Match مجلة Lavie au ventre de la mère.
- Tagor Le fugitif.
- Odette tibot témaignage chrétienne.
- Hélène deutch: l’adolescence.
- Durant Pleasure of philo.
- Stanly: life does have purpose.
- Hacking and others: Asiatic mythology.
- Alexis carrel: L’home cet inconnu.

# الفهرس


مقدمة الدكتور محمد راتب النابلسي ..... 3
تصدير بقلم المؤلف ..... 9
تمهيد: معنى الأخلاق ..... 15
**الفصل الأول:** المشكلة الأخلاقية ..... 21
**الفصل الثاني:** الاستعدادات الخُلُقية عند العرب قبل الإسلام ..... 25
**الفصل الثالث:** المبادئ الأساسية للأخلاق الإسلام ..... 29
المبدأ الأول: إله واحد ..... 29
المبدأ الثاني: محمد رسول اللَّه ..... 35
المبدأ الثالث: الوجود جميل ..... 39
المبدأ الرابع: الحياة قيّمة وفذة ..... 43
المبدأ الخامس: الإنسانية واحدة ..... 47
**الفصل الرابع:** امتياز مفهوم الأخلاق في الإسلام ..... 55
1. فقدان الأساطير ..... 55
2. تغليب العقل ..... 56
3. خلق العالم ..... 57
4. المحسوسات ..... 58
5. التوازن ..... 58
6. التفكير التجريدي ..... 58
7. الإنسان خليفة اللَّه ..... 59
**الفصل الخامس:** الأخلاق والعلوم الإنسانية ..... 61
علم الاجتماع . علم العادات والأخلاق . الأخلاق الاجتماعية ..... 61
علم النفس والأخلاق ..... 67
علم الأنثروبولوجيا ..... 71
قيمة المفهوم الأخلاقي في العلوم المسلكية ..... 74
**الفصل السادس:** دراسة مقارنة بين أخلاق الإسلام والأخلاق الفلسفية ..... 81
**الفصل السابع:** التوجهات العمليّة ..... 97
**الفصل الثامن:** الأخلاق المعاصرة ..... 105
المراجع العربية ..... 117
المراجع الأجنبية ..... 119
الفهرس ..... 120